على عتبات الوهم الفاتنة

Telegram:@mbooks90

مهنّد محمّد عميرة

فصول عن الحريات الفردية والاجتماعية والسياسية

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على عتبات الوهم الفاتنة

فصول عن الحريات الفردية والاجتماعية والسياسية

On the charming thresholds of illusion

Chapters about personal, social and political free will

مهند محمد عميرة

mohannad mohammad Amireh

الطبعة الأولى

٢٠٢٢م

دار المعارف

تأسست ١٨٩٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رئيس مجلس الإدارة

سعيد عبده مصطفى

كتب ثقافية

تصميم الغلاف:

ضياء ابراهيم

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكتروني
بدار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل –
القاهرة – جمهورية مصر العربية

عميرة ، مهند محمد.

على عتبات الوهم الفاتنة: فصول عن الحريات الفردية والاجتماعية والسياسية

On the charming thresholds of illusion

/ مهند محمد عميرة. ط1 – القاهرة: دار المعارف، 2022.

144 ص، 19.5 سم

تدمك 978 977 02 9230 3

1 – الحرية.

تصنيف ديوي: 323.44

رقم الإيداع: 3643/ 2022

رقم أمر التشغيل: 1/2021/107

رقم الكونجرس: 6 – 841256 – 01 – 2

لا يجوز استنساخ أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابي من دار المعارف.

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٠٧٧ – فاكس : ٢٥٧٤٠٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لمّا رأيتُ النّاسَ مِن حولي يتعاملون مع مفهوم الحريّة بسذاجة، كما يتعامل مراهقٌ مع حبّه الأوّل، ألحّت عليّ فكرةُ هذا الكتاب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إهداء

إلى كلّ مَن أراه، فتتنازعُ مشاعري فيّ، حتّى لا أدري أأشفقُ عليه، أم أحسدُه!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سقراط وحَلَق الرضيعة

في أحد الأيام الكئيبة -من وجهة نظر أفلاطون في الأقل- من عام 399 ق.م، استعجل سقراط كريتو ليناوله كأس السم. لم يشأ انتظار الموعد المقرَّر لتنفيذ الإعدام، بعد غروب الشمس. ربما آثر قبل موته ألّا يرى ليل أثينا المظلم! مات سقراط. قتله زعماء الديمقراطيّة حين عبّر عن آرائه! ورضيث عن موته جموع الناس، التي جذبها ذلك البريق المشعّ حول كلمة الديمقراطيّة. ومتى ناقشت الناس الفكرة بالفكرة، وردّت الحجّة بالحجّة! لطالما كانت الأنا الإنسانية منطقة خطرة، مَن يقترب منها يدفع الثمن، حتى لو كان محقًّا.

حلم سقراط بدولة يقودها أكثر الرجال كفاءة، وليس أكثرهم حصولًا على أصوات الناخبين، لكنّه اصطدم بالجماهير لمّا سأل نفسه سؤالًا منطقيًا بسيطًا: كيف يفاضل هؤلاء البسطاء بين كفاءة الرجال؟ ولمّا كانت إجابته لا تودي إلّا إلى تلك المنطقة الخطرة التي لا عودة منها، اقتحمها سؤاله التالي الخطير: هل لهم حريّة الإدلاء بأصواتهم؟ ولأنّ المنطق يستفزّ العوامّ، ويسقطهم من أبراج وهمهم العالية إلى حقيقة واقعهم الهاربين منه؛ كره أهلُ أثينا سقراط، ورحّبوا بموته. ثمّ نَسُوهُ سريعًا كأنّه لم يكن، وعادوا إلى جهلهم المريح، ملقين آذانهم للزعماء السياسيين ليصبوا فيها معسول كلامهم، وفضفاض مصطلحاتهم البرّاقة: الشرف، العدل، الأمانة، المسؤوليّة...

لم تصل الديمقراطيّة بأثينا إلى الاستقرار، ولم تنهِ سنواتِ الحرب الأهليّة بين المدن الإغريقيّة، بل أجبرت الحربُ أثينا على الاستعانة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالإمبراطوريّة الإخمينيّة لصدّ نفوذ أسبرطة. ورغم أنّ أسبرطة خسرت الحرب أمام التحالف الأثيني، لكن أثينا المنتصرة كانت جريحة، حسمت المعركة على حساب رجالها، واقتصادها، ونفوذها. أمست كرجل مسنٍّ خائر القوى وأفلاطونُ يراقبها قليلَ الحيلة من بعيد، وهذا قدر الفيلسوف، أن يكون غريبًا عن زمانه، وهذا مصير الفِكر، أن يخسر أمام القوّة. ولحسن حظّ أفلاطون أنّه مات، والتحق بمعلّمه سقراط، قبل أن يرى أثينا تسقط في يدي فيليب الثاني بعد انتصارها على أسبرطة بسنوات معدودة. هكذا انهارت أثينا، وفقدتْ ريادتها الحضاريّة إلى الأبد!

بعد أكثر من ألفي عام على سقوط أثينا، وتحديدًا في عام 2020، في مكان ما في الشرق الأوسط، استيقظت ظهرًا سيّدة ثلاثينيّة، تقلّبت نصف ساعة على سريرها الهندي، قبل أن تتّجه متثاقلةً إلى مطبخها الإيطاليّ لتصنع كأسًا من النسكافيه، فتحت الفلتر الأمريكيّ وملأت الغلّاية الصينيّة بالماء. عادت إلى غرفتها، اضطجعت، وتناولت هاتفها الكوري، فتحت الفيسبوك، وهمّت بكتابة منشور جديد. انقطعت الكهرباء، فانطفأ المكيّف الياباني، أخذتْ تلعن شركة الكهرباء الوطنيّة على انقطاع خدماتها، ثمّ غطّت في نوم عميق. بعد ساعة، استيقظت على صوت ارتطام سيّارة ألمانيّة بجدار قريب. لم تضعف حوادث اليوم المتكرّرة عزمها، ولم تفقدها صبرها، تناولت هاتفها مرّة أخرى، وفتحت الفيسبوك مرّة أخرى، وكتبت بلغة ركيكة:

«ثقب أذن الطفلة لوضع الحلق هو اعتداءٌ على حريتها الشخصيّة، مِن حقّها أن تقرّر إذا كانت تريد أن تلبس الحَلَق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رسالة إلى الأهل: توقفوا عن مصادرة حريّة أبناءكم، وخصوصًا البنات.»

في الفترة التي أعقبت موت سقراط -الذي نادى بعدم منح المواطنين حريّة اختيار ساسة البلاد- حتّى ارتفاع أصوات تنادي بحريّة الطفلة في تقرير مشيئتها بارتداء الحلق، ماذا جرى في العالم؟ كيف اختلف مفهوم الحريّة عبر العصور؟

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بين أمارجي وفريدم

قبل ظهور سقراط بألفي عام، جمع القائد الغاضب أوروكاجينا الناس ليثور على الحاكم لوغال أندا. حدث ذلك في مدينة لكش السومريّة، على بعد 3600 كم جنوب شرق أثينا. انتصر أوروكاجينا، واعتلى عرش المدينة الزراعيّة. حينها ظهرت كلمة الحريّة للمرّة الأولى في قاموس

التاريخ. أطلق السومريّون عليها «أمارجي».

الحريّة المقصودة في ذلك الزمان هي الانعتاق من العبوديّة، والديون، والضرائب. أمارجي تعني حرفيًا: العودة إلى الوضع الأصلي، وضع الإنسان عند الولادة، حين يأتي إلى الحياة دون أعباء ماليّة أو سياديّة. (1) وعند الإغريق في بدايات دولتهم، كان مفهوم الحريّة مشابهًا لِما عرفه السومريّون، إذ عبّرت الكلمة الإغريقية «ايلوثيريا» ἐλευθερία عن انعتاق العبد من سيّده. (2) عرفت الحضارات القديمة في العموم معنى الحريّة كنقيض للعبوديّة، الحر -في الزمان الغابر- هو الذي لا يمتلكه سيّد من السادة امتلاك الإنسان لسلعة من السلع.

(1) انظر كتاب أكسفورد للثقافة المسماريّة، لكارين ريدنر وإلينور روبسون، ص. 205.

(2) انظر مقال حريّة الديمقراطيّة ومفهوم الحرية عند أفلاطون وأرسطو، لموغينس هيرمان هانسن، ص. 1-27.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واليوم تطوّر مفهوم الحريّة مع جملة ما تطوّر من المفاهيم، فأصبحت - بمفهومها المعاصر - تشير إلى الاختيار المطلق لِما يفعله الإنسان أو يفكّر فيه، بشرط واحد فقط، وهو ألّا يضر ما يفعلُه الآخرين. أوردها جميل صليبا في المعجم الفلسفي على أنّها «خاصّة الموجود، الخالص من القيود، العامل بإرادته أو طبيعته»(3). وعرّفها قاموس كامبردج للإنجليزيّة الأمريكيّة (freedom) بأنّها «الحالة التي يكون الإنسان قادرًا فيها أو مسموحًا له الفعل، أو القول، أو التفكير فيما يريده، دون التحكّم فيه أو تقييده» (4). .

(3) انظر المعجم الفلسفيّ: بالألفاظ العربيّة والفرنسيّة والإنجليزيّة واللاتينيّة، لجميل صليبا، ج. 1، ص. 462.

(4) انظر قاموس كامبردج للإنجليزيّة الأمريكيّة، جامعة كامبردج، ص. 344.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سقراط، مرّةً أخرى

ربّما يستنتج قارئٌ للفصل الأوّل أنّ سقراط كان -بالمفهوم المعاصر- داعيًا إلى الدكتاتوريّة. قبل أن يجلب الحكمُ السريع سوءَ التقدير، فلنتعرّف على جوانب أخرى من شخصيّة سقراط! حكى أفلاطون عن اجتماع ودّي في بيت رجل اسمه سيفالس، ضمّ خمسة رجال، تبادلوا الأحاديث الاعتياديّة، ثمّ وصلوا إلى الكلام عن المال، سأل أحدهم سيفالس عن أعظم الخيرات التي جلبتها إليه الثروة، أجاب: السخاء، والكرم، والعدالة، ردّ سقراط بأن طلب من سيفالس أن يقدّم تعريفًا للعدالة. (5) ليست إجابة سيفالس هي المهمّة هنا بقدر أسلوب سقراط نفسه، توجيه الأسئلة المفاهيميّة الصادمة المستقاة من كلام المُحاور. لم يتعمّد سقراط إحراج مُحاوريه عندما يطلب منهم توضيح كلامهم، بل هدف إلى خلق عاصفة في أذهانهم تعيد ترتيب المفاهيم داخلها، وربّما تُغيّر أفكارهم إذا نحّوا كبريائَهم عن الحوار. ولكنّ كم منّا يعلي شأن الحقيقة على الأنا، فلا يظنّ التراجعَ عن الرأي مهدّدًا لكيانه!

(5) انظر كتاب قصة الفلسفة، لويل ديورانت، ص. 23.

يعيش الجنين في مكانٍ لمّا يعرف غيره حتّى يرى «نور الدنيا». الفكرة تشبه الجنين، تحيطها حدود ضيّقة لأفقٍ محدود، إلى أن يأتي من يستخرجها إلى سَعَةٍ من معرفة. وكما كانت أمّ سقراط دايةً تُخرِج الجنين إلى الحياة الرحيبة، كان سقراط يسحب بأسئلته الأفكارَ سحبًا من عقول أصحابها. بلا شكٍ كان مجهود سقراط أكبر! اعتاد سؤال محادثيه توضيحَ كلامهم، لم يزد ذلك الرجل الماكر تعريفات أكاديميّة، ولا حواشي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إضافيّة، بل تعمّد أن يصدم الناس بأبسط الأسئلة عن كلماتهم التي لا يفكّرون فيها في العادة، بقدر ما تورثهم إيّاها جينات المجتمع. مَن منّا حين يتكلّم يسأل نفسه عن ماهيّة الخير والشرف والجمال والفضيلة!

Telegram:@mbooks90

أراد سقراط منّا أن نسأل هذه الأسئلة، لعلّ جهلنا يتكشّف لنا، فنعالجه بالبحث والقراءة والحوار، ومن يدري؟ فربما في رحلة العلاج هذه يتغيّر بعض من مفاهيمنا. ولكن لماذا أرادنا سقراط أن نعرف؟ لأنّه أرادنا أحرارًا، نِصفُ الحريّة -من وجهة نظره- مرتبط بالمعرفة، فرأي الجاهل كزبد البحر، لا قيمة له. نصفُها الآخر هو فعل الخير، الحريّة إذًا هي معرفةُ الخير وفعلُه. بغير المعرفة، وبغير إرادة الخير؛ فقدَ الإنسان حقَّه في أن يكون حرًّا. والخير - كما رآه سقراط - هو ماهيّة الشيء وغايته، وهو مرتبط بالاستغناء عن الشهوات، والرغبة في النفع، والالتزام بقوانين الدولة. (6)

(6) انظر كتاب موسوعة الفلسفة، ج. 1، لعبد الرحمن بدوي، ص. 579.

اصطدم مفهوم سقراط عن الحريّة بأسلوب القادة السياسيّين، القائم على حشد الناس. بقيّة القصّة معروفة، استاء زعماء الديمقراطيّة من سقراط، وسرى بين الناس أنّه يضع قيودًا على حريّتهم السياسيّة. والحقيقة أنّه حمّل عقول الناس ما لا تحتمله. ثمّ مات كما يليق بفيلسوف! وكان ممّن حضر موته الأسطوري الشابُّ أفلاطون، الذي تأثّر بمقتله كما تأثّر بفلسفته. ولأنّ بعض الأسى يورث الولاء، فقد سار أفلاطون تلميذًا نجيبًا على مفاهيم أستاذه، وصال وجال في ميادين النفس البشريّة، يتحدّث عن الأخلاق والفضيلة والحوار - الديناليكتيك -

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والمعرفة.

تحكي العرب سيرة فارس وشاعر قلّ نظيره، عاش في القرن السادس الميلادي في كنف أبيه، الذي كان من سادات قبيلته وأغنيائها. تبنّى هذا المُرفّه قضيّة اجتماعيّة، فترك ديار قبيلته والتحق «بالصعاليك». تحوّل إلى قاطع طريق ألهمت قصّته الكثير من الروائيين والشعراء حول العالم، فقد كان نبيلًا يسطو على الأغنياء ليطعم الفقراء، حتّى إنّه لمّا سُئل عن نحول جسمه، أجاب:

إنّي امرؤٌ عافى إنائي شركةٌ

وأنتَ امرؤٌ عافى إنائك واحدُ

أتهزأُ مني أن سمِنتَ وأن ترى

بوَجهي شُحوبَ الحقّ والحقُّ جاهِدُ

أقسّمُ جِسمي في جُسومٍ كثيرَةٍ

وأحسو قَراحَ الماءِ والماءُ باردُ (7)

(7) انظر ديوان عروة بن الورد، ص. 61

لم يكن فارسنا هذا سوى عروة بن الورد العبسي. رجلٌ غني دفعته الفضيلة إلى الزهد في أموال أهله، وأخذته الشجاعة مآخذَ لا يطرق أبوابها إلا المخلصون لفضيلتهم. شخصيّة عروة تستحق الدراسة المتأنيّة، شأنها شأن شخصيّة أفلاطون، الذي نشأ ابنًا لأحد أثرياء أثينا، لكنّه آثر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جحيم الفلسفة وتعب الترحال على نعيم الجهل ورفاهيّة الاستقرار، وفضّل بأفكاره عداء السفسطائيين على راحة باله المضمونة. لقد أدرك أفلاطون ما لا يدركه إلّا المخلصون، من أمثال عروة.

وفيما يتعلق بالحريّة، لم يضف أفلاطون كثيرًا إلى الخطوط العريضة التي وضعها سقراط، لكنّه فصّل فيها، وأكثر من الإيضاح. أكّد أنّ الإنسان حر، يفعل ما يريده في حدود الخير، ولكن ينبغي عليه أن يعلم ما هو الخير. وتبنّى الحوار الصادم، كما فعل سقراط، إلّا أنّه شرح مفهوم الحوار، فقسّمه إلى «استقراء» و«قِسمة». والاستقراء هو الصعود من الجزئي للكلّي، كأن نقول إنّ الكلام الموزون المقفّى شعر، والشعر يمكن جمعه مع الرواية والقصّة والمسرح والخطابة ضمن ما يسمى بالأدب. أمّا القسمة فهي النزول من الكلّي للجزئي، فإذا أخذنا المثال السابق نفسه، سنقول إنّ الأدب يشمل الرواية والقصة والمسرح والخطابة والشعر، والشعر كلام موزون مقفّى.

ضرب أفلاطون مثالًا لا ينفك الفلاسفة يستخدمونه حتّى يومنا هذا، وهو مثال الكهف، أو كما تعرفه الأكاديميا «بكهف أفلاطون». وهي قصّة حواريّة بين سقراط ورجل يدعى غلوكون. طلب سقراط من غلوكون أن يتخيّل أناسًا نشأوا مقيّدين بالسلاسل في كهف، أجبرهم قيدهم الثقيل على النظر إلى الأمام فقط، وخلفهم نارٌ تنعكس على جدران الكهف أمامهم. إنّهم لا يرون مصدر النور الحقيقي، بل يرون خياله فقط، ويظنّون مخطئين أنّهم عرفوا ماهيّته. لو عانى أحدهم مشقة الخروج من هذا الكهف لأدرك أنّ ما يراه ليس إلّا انعكاسًا، وأنّ النور الحقيقي في مكان آخر. هذا الخارج سيعاني مقاومة القوم في الداخل إذا حاول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شرح الأمور لهم على حقيقتها. (8) استخدم أفلاطون الرمزيّة ليشير إلى سجن الجاهل لعقله، ومتاعب الخروج الضروري مَن هذا السجن، والتي منها رفض الجهلة التسليم بالحقائق التي تخالف معتقداتهم. الحريّة عند أفلاطون غايتها الخير. والخير متعلّق بثابت أزلي غير محدود، يتعاظم بابتعاد النفس عن الجسم، ابتعادًا يتجسّد بالزهد وترك الشهوات. فكما ينبغي على السجناء الخروج من الكهف لمعرفة الحقيقة، ينبغي على النفس التحرّر من الجسم للوصول إلى الفضيلة.

(8) انظر كتاب الجمهوريّة، لأفلاطون، ص. 232.

النماذج العلميّة كالإنسان، لا تولد ناضجة، بل تمضي في رحلتها ثراكم تجاربها، وتعالج ثغراتها، إلّا أنّ رحلتها هذه أطول من عمر الإنسان، لهذا لا تكتفي بملاحظات رجل واحد، بل تحتاج جيلًا واحدًا في الأقل حتى تكتمل. ونموذج الفلسفة الإغريقيّة بدأ مسيرته المثيرة للاهتمام على يد سقراط - هناك فلاسفة إغريق قبل سقراط، ولكنهم أقل تأثيرًا، خصوصًا في الفلسفة الإنسانيّة- ثم نضج بشروح أفلاطون، ووصل حكمته واكتماله بآراء أرسطوطاليس، الذي تربّع على هرمه، وأضحى أيقونته. هناك في أثينا، مصنع الفلسفة الإغريقيّة، تنفّس أرسطوطاليس حكمة أستاذه أفلاطون، فقدّم للتاريخ أكثر من ثمانين كتابًا. شملت آراؤه الطبيعة، والميتافيزيقا، والأخلاق، والشعر، والمنطق الذي يعتبر مؤسّسه الحقيقي. وفيما يخص الحريّة - موضوعنا هنا - فقد أقرّ أرسطوطاليس صفتي المعرفة والخير للرجل الحر، اللّتين تحدّث عنهما معلماه، لكنّه أضاف إليهما صفة ثالثة، وهي الاختيار. فالرجل الحر هو مَن يمتلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المعرفة التي تؤهله للاختيار الفاضل دون جبر أو توجيه.

بموت أرسطوطاليس انتهت حكاية الفلسفة اليونانية القديمة. سقطت أثينا، وآثر المارد العملاق - الذي يدعى الفلسفة - العودة إلى قمقمه مستهزئًا من المحاولات الخجولة لإخراجه. لا شك في أنه كان محقًا، فمَن أراد أن يستدعي عظيمًا مثله، عليه أن يأتي بعظيم!

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مارد اسمه روما

لو كنتَ جالسًا مع مجموعة مِن الرفاق، ثم قال أحدهم: «هذا حدث غيّر شكل العالم»، ستنتابك القشعريرة، وترسل حواسك كلّها كالسهام نحو المتحدّث، في انتظار ما هو قادم مِن كلام. لا شك إنّ محور الحديث أمرٌ جلل، لا يحدث في تاريخ البشريّة إلّا مرّاتٍ معدودة. أمّا وقد ألقيتَ الآن بأذنك لدينا، فنحن نتكلّم هنا عن التوسّع الروماني، الذي تغيّرت بعده خارطة العالم كلّه، خُتِمت خمسة ملايين كيلو متر مربع بختم المِلكيّة الروماني.

في نهايات القرن الأوّل قبل الميلاد، سيطرت روما على أراضٍ حكمتها أعرق حضارات العالم القديم المعروفة على الإطلاق: مصر وفينيقيا واليونان، واستمرّت بتوسعاتها حتى أخضعت بلادَ ما بين النهرين. آمنت روما أنّ القوّة هي سرّ البقاء، وأنّ العلوم والفنون كالحلي، يلبسها القوي - بعد أن يفرض سطوته - ويباهي بها، فتنتشر في أرجاء الدنيا تحت كنفه. والقوي إذا مسّه شيء من حكمة حجز لنفسه مكانًا مشرقًا في صفحات التاريخ! وقد كان من حكمة العملاق الروماني حرصه على أن يحتفظ بهيبته، ولا يظهر بمظهر الطالب الساذج، الذي قتل أستاذه ثم أحرق كتبه. لذلك لم يدمّر الرومان علوم مَن قبلهم، بل اعتنَوا بها، بالشرح والترجمة والتفصيل. إذا حالفك حظّك السعيد يومًا ما، وزرت الجنوب المصري، انتبه جيدًا وأنت تلتقط الجمال عن جدران المعابد، فأبطال الرسوم هناك ليسوا كلّهم مصريّين! لم يقوَ قلب أباطرة الرومان على تدمير المعابد المصريّة، بل أضافوا عليها رسومات لهم وهم يقدّمون القرابين، ويجزّون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأسرى لإيزيس وأوزوريس وحورس وحتحور، وعندما بلغت النشوة فيهم ذروتها، بنوا معابد لتلك الآلهة أيضًا! كما وقف الرومان وقفة المنبهر أمام الفن المصري القديم، فقد عظّموا فلسفة الإغريق، وحاولوا الإضافة عليها، لكن دون أن يجرؤوا على الخروج عن خطوطها العريضة.

ظهر الكثير من الفلاسفة الرومان، ربّما كان أشهرهم الإمبراطور ماركوس أوريليوس، وأبكيتيتوس، وشيشرون، ولوكيوس سينيكا، وألكسندر الأفروديسي. لكنّ هؤلاء شرحوا الفلسفة اليونانيّة أكثر ممّا أضافوا إليها، حتّى إنّهم استخدموا مصطلحاتها، وانتسبوا لمدارسها، وكتبوا معظم كتبهم باليونانيّة، فلم تنشئ محاولاتهم الخجولة فلسفةً رومانيّة خالصة، الأجدر بنا أن نقول إنّهم امتداد للفكر الإغريقي. أدرك الأكاديميّون ذلك مبكّرًا، فصاغوا مرتاحي الضمير مصطلحَ «الإغريقي-الروماني» للإشارة إلى حقب تاريخيّة ومدارس فكريّة وأنماط فنيّة تماهث فيها الثقافتان. وقد ترتّب على ذلك بقاء المفهوم العالمي - الأكثر انتشارًا، وليس الوحيد- للحريّة ثابتًا كما صاغه الإغريق، حتّى جاء «ابن الدموع» في القرن الرابع الميلادي وتجرّأ على العبث به.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هواجس مِن الشّرق

الشرق والغرب عابدٌ وعالِم، يمضي الأوّل في الدروب، يستقصي طريق الله وروحُه ملأى بالوجد، حتّى يرى الدنيا بعيون قلبه القانت، فيستعين بالله على تفسير كلّ ظواهرها. ويتعامل الثاني مع ملاحظاته في حدود حواسّه، أو ما استطاع أنْ يُمَنطِقه مِن حدس. لم يكن عجيبًا أنْ تكون الأديان مفتاحًا لفهم فلسفة الشرق.

كثيرًا ما تتحدّث الأديان عن فكرة القَدَر، وإنْ سمّتها بمسمّياتٍ مختلفة. وهي تتلخّص في أنّ كلّ ما يصيب الإنسان في حياته مكتوب له قبل ولادته. هذا المبدأ الخطير كان له تأثير عظيم في النقاش الدائر حول الحريّة، أو العكس، مفهوم الحريّة هو الذي أثّر في فهم نصّ مقدّس ما. طُرِحت مسألة الحريّة والقدر مبكّرًا في الهند، قبل ظهور سقراط. آمن الهندوس والبوذيّون والجاينيّون «بالكرمة»، بينما اعتقد أتباع الأجيفيكا «بالنياتي». قد يبدو المصطلحان غامضين، ولكن قبل الحديث عنهما ينبغي علينا أن نعرف أنّ هذه الديانات الأربعة تؤمن بتناسخ الأرواح، أو الولادة الجديدة، حيث تحلّ روح الكائن بعد موته في كائن آخر، ليعيش حياة أخرى جديدة، في مكان وزمان آخرين. الكرمة هي الاعتقاد بأنّ أفعال الإنسان الحسنة في حياته هي المسؤولة عن حياة أخرى سعيدة له، بينما تودي به أفعاله السيّئة إلى التعاسة في حياة أخرى. لا تُسلّم الكرمة أمور الإنسان إلى القدر تمامًا، بل تعتبر اختياراته في حياته هي السبب الذي يصل به إلى حال ما - جيد أو سيئ - في حياة أخرى. المؤمنون بالكرمة إذًا يقرّون بتمتّع الإنسان بحريّة الاختيار، وتحمّله

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لعواقب اختياراته. لم يرُق هذا الفكرُ ماسكارين غوزالا، الشخصيّة الأهمّ في ديانة الأجيفيكا، فعارضه بالقول بإنّ كلّ شيء في حياة الإنسان والكون محدّدٌ مسبقًا، ويعمل وفقًا للمبادئ الكونيّة، لذلك فالاختيار الحقيقي غير موجود، وهذا هو مفهوم نياتي. (9) بين كرمة ونياتي، قبعت كلّ مدارس العالم القديم التي ناقشت مدى الحريّة في ظلّ القدر.

(9) انظر كتاب تاريخ ومذاهب الأجيفيكا: ديانة هنديّة منقرضة، لآرثر باشام، ص. 224.

الفكرة القائلة إنّ تصرّفات الإنسان كلّها محدّدة مسبقًا، يسمّيها الأكاديميون اليوم «بالحتميّة». تختلف المدارس الحتميّة على المسؤول عن هذا التحديد، فقد يكون قوانين الطبيعة عند بعضهم، أو إرادة الله عند بعضهم الآخر. يجب هنا ذكر أنّ أغلب(10) الفلاسفة الإغريق والرومان لم ينكروا قوانينَ الطبيعة، لكنّهم اعتبروها مجرّد قيودًا على الحريّة، أي أنّهم لم يُلغوا تمامًا فكرة حريّة الإنسان، بل جعلوها محدودة بما تفرضه الطبيعة السائرة بقوانينها، كالليل والنهار، وتعاقب الفصول، وسير القمر. أمّا ماسكارين فقد نفى تمامًا وجود أيّ اختيار للإنسان في حياته، وهذا ما يُدعى في الأكاديميا المعاصرة بالحتميّة الصلبة. خلاصة هذا السجال الدائر سؤالٌ تاريخي: هل توجد إرادة للإنسان في ظلّ هذه الحتميّة؟

(10) أنكر أبيقور أيّ علل خارجيّة من شأنها التأثير على الحريّة، وجعلها مطلقة. سنتحدث في فصل لاحق عن الأبيقوريّين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قُدّمت عشرات الإجابات المختلفة على هذا السؤال، ولد من رحمها العديد من المدارس الفلسفيّة. سأهرب من مصطلحات الأكاديميّين المرهقة، وأكتفي بالإشارة السابقة، وهي أنّ الاختلاف بين أغلب هذه المدارس هو على نوع المسبّبات الحتميّة: إلهيّة أم طبيعيّة، وعلى درجة هذه الحتميّة: بين المطلقة تمامًا والغائبة تمامًا. ومن المهم أن نعرف أنّ مفارقة الحتميّة هذه أنتجت ما يُعرف بالتوافقيّة واللّا توافقيّة. أمّا التوافقيّة فهي القول بأنّ الحتميّة وحريّة الإرادة لا تتعارضان، فقد يوجدان معًا. واللّاتوافقيّة هي أنّ الحتمية وحريّة الإرادة لا يجتمعان، فبالتالي أحدهما غير موجود. وبينهما أيضًا مدارس كثيرة!

يؤمن المسيحيّون بأنّ الله قادر على كل شيء! يعرف الماضي والحاضر والمستقبل. جاء في الكتاب المقدّس: «وَالأَرْبَعَةُ الْحَيَوَانَاتُ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهَا سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ حَوْلَهَا، وَمِنْ دَاخِلٍ مَمْلُوَّةٌ عُيُونًا، وَلاَ تَزَالُ نَهَارًا وَلَيْلًا قَائِلَةً: قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ، الرَّبُّ الإِلهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي كَانَ وَالْكَائِنُ وَالَّذِي يَأْتِي.» (11) الله عليم بالأفعال الإنسانيّة قبل حدوثها، وقادر على تغييرها متى يشاء، وسيحاسب كلّ إنسان على أفعاله، الجيّدة والسيّئة. لكنّ هذا لا يتعارض مع حريّة الإنسان، فالإنسان هو الذي يقرّر أفعاله، والله يعرف مسبقًا قراراته. ربّما كان القدّيس أوغسطينوس هو أوّل مَن قدّم رؤية توافقيّة بهذا الشكل بين الحتميّة الدينيّة وإرادة الله. (12)

(11) انظر الكتاب المقدّس، سفر رؤيا يوحنّا اللاهوتي (4:8).

(12) انظر الموسوعة الكاثوليكيّة، لشارلز هيبرمان، ج. 2، ص. 84.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عاش أوغسطينوس حياة متقلّبة، عرف اللّهو والعبث قبل أن يصبح قدّيسًا. ارتحل كثيرًا، واطّلع على ثقافات متعدّدة، نثرت أسفارُه وقراءاته أمامه مختلفَ التيارات الفلسفيّة والفكريّة والدينيّة ليختار منها ما يشاء. اعتنق الديانة المانويّة فترةً من حياته، ممّا فطر قلب أمّه -القدّيسة مونيكا- فذرفت عليه الدموع عشرين عامًا، حتى لُقّب أوغسطينوس بابن الدموع. ولمّا اختار المسيحيّة عرف الله القدير العليم، وفهم من هذا المنظور مدى ما امتلكه من قدرة على القرار، فقدّم تصوّره التوافقي: يختار الإنسان، ويعلم الله مسبقًا اختياراته.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صحوةُ المارد

مكّة وادٍ تحيطه الجبال الوعِرة، تضاريسها الصعبة لا تغري القبائل بالتجمّع فيها في المواسم، رغم ذلك، فقد ضمّت أشهر الأسواق العربيّة في الجاهليّة، حيث تهافتَ أبناء قحطان وعدنان مِن كلّ أرجاء الجزيرة للتجارة والشِّعر. وجودُ الكعبة في مكّة أعطاها ذلك الاهتمام، قدّست عرب الجاهليّة الكعبة، وحجّت إليها كلّ سنة. وفي مكّة ظهر الدين الجديد، كان النبيّ يدعو إلى «لا إله إلّا الله، محمّدٌ - صلّى الله عليه وسلّم - رسول الله.» بدأ واحدًا يعرض الأمر في بيته، وأصبح بعد مئتي عام أُمّةً مِن خمسين مليونًا ينتشرون في شرق الأرض وغربها. استقبلت الروح الشرقيّة الشغِفة نفحاتِ الإسلام، استقرَّ الأمر، وبُنيَت الدولة بسرعةٍ لم يعرف التاريخ نظيرًا لها، حتّى تحقّقت شروط الحضارة، وقاد المسلمون العالم كما يقودون أعنّةَ خيولهم. تطوّرت شتّى العلوم في الدولة الجديدة: اللّغة، والشِّعر، والعمارة، والموسيقى، والفلسفة، حتّى لم يجد خصومهم حرجًا أنْ يطلقوا على تلك الفترة من التاريخ الإسلامي: «العصر الذهبي».

يرى الباحثون أنّ الكِندي -الذي عاش في القرن التاسع الميلادي- هو أوّل فيلسوف عربي بالمعنى الأكاديمي لكلمة فيلسوف، لذلك استحقّ لقب «أبو الفلسفة العربية».(13) وفي الشرق الذي تعجّ أركانه بالأديان، وتسبق روحُه أيَّ سابق، لا يمكن أن يتمّ تناولُ الفلسفة، ولا غيرها من العلوم -أو حتّى النظريّات العلميّة- دون أن يُقرّ الدين بمشروعيّة هذا التناول. لذلك انبغى على الكندي أن يختم بختم الإسلام على وثيقة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفلسفة قبل أن يُقدّمها للمجتمع العلمي وللناس. ألبسَ الكندي مادةَ الفلسفة النائم في قمقمه منذ قرون ثوبَ الإسلام، وأخرجه ليضعه بين أيدي الفلاسفة المسلمين من بعده، من أمثال: الفارابي، وابن الهيثم، والبيروني، وابن سينا، والغزالي، وابن رشد.

(13) انظر كتاب تاريخ الفلسفة الإسلاميّة، لهنري كوربن، ص. 154.

أبدى فلاسفة المسلمين رأيهم في مجمل القضايا الكونيّة والإنسانيّة، وبالطبع كانت معادلة الحريّة والحتميّة إحدى قضاياهم. قد يظن البعض أنّها إحدى السجالات التي ظهرت أثناء نمو الفلسفة الإسلاميّة، لكن في الحقيقة هي أقدم من ذلك. عرض محمّد عمارة بعض الآراء التي تقول إنّ مشكلة الحتميّة موجودة عند العرب حتّى قبل ظهور الإسلام.(14) كما أنّنا إذا أخذنا في اعتبارنا وجوبَ التفريق - كما دعا إليه عاطف العراقي(15) - بين الفلسفة، وعلم الكلام، والتصوّف، فإنّ هذه القضيّة عند المسلمين أقدم من الفلسفة الإسلاميّة نفسها، ربّما من الأنسب اعتبارها ضمن علم الكلام. وعلى أيّ حال، فإنّ ذكرَ آراء مفكري المسلمين بخصوص الحريّة والقدَر أكثرُ أهميّة لدينا مِن تحديد الفرع الأكاديمي الذي ينتمي إليه الجدل الدائر حول الموضوع، ومِن تتبّعِ جذور نشأتها عند العرب.

(14) انظر كتاب المعتزلة ومشكلة الحريّة الإنسانيّة، لمحمد عمارة، ص. 20.

(15) انظر كتاب مذاهب فلاسفة الشرق، لعاطف العراقي، ص. 16.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال جهم بن صفوان -مؤسس الفرقة الكلاميّة المعروفة باسمه «الجهميّة»- بأنّ العبد كالجماد، لا حريّة له أبدًا في أفعاله. وهذا منتهى الحتميّة، أو الجبريّة. (16) استند رأيُ الجبريّين على اعتقادهم بأنّ الله هو الفعّال، ولا ينبغي لأحدٍ مِن خلقه أن يشبهه، فبالتالي لا يمكن للإنسان أن يكون هو المسؤول عن أفعاله. (17) وفي جبريّة أقلّ حِدّة، قال الأشاعرة بأنّ الله هو الخالق، الذي يخلق أفعال العباد، لكنّ العبد «يكتسب» الأفعال. فالإنسان يفعل ما يشاء، لكنّه يشاء ما يشاؤه الله. وقد جاءت فكرة الاكتساب مخرَجًا من قضيّة الحساب في الآخرة، فلا يستقيم أن يخلق الله الأفعالَ ويحاسب الإنسانَ عليها. (18) مِن المهمّ هنا الإشارة إلى ما ذكره محمّد عمارة -نقلًا عن المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبّار- بخصوص الدوافع السياسيّة لظهور الجبريّة في الإسلام، حيث قال إنّ فكرة الجبريّة تمّ استخدامها لإقناع الناس بتحوّل الخلافة من الشورى إلى المَلَكيّة في عهد معاوية بن أبي سفيان. (19)

(16) انظر كتاب تاريخ الجهميّة والمعتزلة، لجمال الدين القاسمي، ص. 29.

(17) انظر موسوعة الفلسفة، لعبد الرحمن بدوي، ص. 460.

(18) انظر كتاب موقف البشر تحت سلطان القدر، لمصطفى صبري، ص. 50.

(19) انظر كتاب المعتزلة ومشكلة الحريّة الإنسانيّة، لمحمّد عمارة، ص.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.29

على الجانب الآخر من الحتمية، وقف المعتزلة قائلين بحريّة الإنسان الكاملة في الاختيار والفِعل. رأوا أنّ الإنسان مُستطيع، وخالقٌ لأفعاله، بالمعنى الحرفي لا المجازي. وإن كان لا يمكن أن يكون للفعل خالقان: الله والإنسان، فليكن إذًا خالقٌ واحد هو الإنسان. والخلق - بحسب تعريف المعتزلة - هو الصنع القائم على التخطيط، وليس الإنشاء من العدم. حسنًا، ماذا قال المعتزلة عن الظروف الخارجيّة المحيطة بخلق الفعل؟ كيف برّروا حريّة الإنسان في ظلّ ما هو خارج عن سيطرته؟ قالوا إنّ الإنسان قد يضطر إلى فعلٍ ما تحت قهر خارجي، ولكن فعل هذا المضطر -«المُلجأ» - من صنعه أيضًا، وليس من صنع الظروف الخارجيّة، حتّى المُلجأ إذًا لم يفقد حريّة الفعل. (20) رغم اختلاف رجال المعتزلة على فكرة الاستطاعة، أهي موجودة مع الإنسان كالفعل نفسه؟ أم موجودة مع الفعل؟ أم كليهما؟ إلّا أنّهم أجمعوا عمومًا على حريّة الإنسان المطلقة.

(20) انظر كتاب المعتزلة ومشكلة الحريّة الإنسانيّة، لمحمّد عمارة، ص. 70.

خلق الله الإنسان بقدرات ذهنيّة وجسديّة معيّنة، وأرسله في كونٍ ذي قوانين تحكمه، إرسالًا مؤقّتًا يعود بعده إلى ربّه، فيحاسبه عن أفعاله. الإنسان ليس حرًّا تمامًا، وإلّا فلا معنى لنواميس الكون، ولا لحدود قدراته الممنوحة له، وهو ليس مجبورًا تمامًا، وإلّا فلا معنى للتكليف والحساب. هذه الرؤية التوافقيّة المتوازنة بين الجبريّة والحريّة لخّصت موقف ابن رشد في هذه المسألة. (21)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(21) انظر كتاب تاريخ الفلسفة العربيّة، لحنّا فاخوري وخليل الجر، ج. 2، ص. 461.

خلاصة الآراء المطروحة في الفكر الإسلامي بخصوص قضية الحريّة تشبه تلك المطروحة في مراحل تاريخيّة سابقة، ولاحقة أيضًا - سنرى ذلك في فصولٍ قادمة. ولكنّ هذا لا يعني تأثّرًا كاملًا أو نسخًا لآراء الفلاسفة السابقين، فالرأي الذي يطفو على السطح -بأنّ الإنسان حرّ، أو مجبرٌ، أو في مكانٍ ما بينهما- خَلْفَه جبالٌ مِن المعتقدات الراسخة، والمعطياتِ الثقافيّة، والأسبابِ الدافعة للقول به. لذلك مِن السذاجة استسهالُ قول إنّ رأي ابن رشد بخصوص حريّة الإرادة - مثلًا - يشبه رأي أوغسطينوس، أو إنّ المعتزلة قالوا بما قال به الأبيقوريّون حول هذا الموضوع. ربّما كان من المجدي أن نذكر أسباب الأبيقوريّين التي دعتهم للقول إنّ الإنسان حر تمامًا، بعد أنْ ذكرنا أسباب المعتزلة، وذلك للمقارنة، وفهم مواطن الاتّفاق والاختلاف.

رأى أبيقور -مؤسس الأبيقوريّة- أنّ الإنسان حر تمامًا، لا تتدخّل بقراراته أيّ قوىً طبيعيّة أو إلهيّة، وحده العقل هو المسؤول عن أفعاله. بالنسبة إليه، الإيمان بالحتميّة يورث العجز، أمّا مطلق الحرية فجلّاب للهدوء، حامٍ من الخوف. وباعتبار السعادة غاية الإنسان الأسمى والأهم، فهي لا تتحقّق إلّا إذا كان حرًّا، حتّى مِن شهوات نفسه. (22) رغم تشابه خلاصة الأبيقوريّين مع المعتزلة في مسألة الحريّة - حريّة إرادة مطلقة - إلّا أنّ الأسباب المودية لهذه الخلاصة مختلفة بينهم. أبيقور عزاها إلى رؤيته عن السعادة والتحرّر من المخاوف. أمّا المعتزلة فقد كانت أسبابهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاستحالة المنطقية لوجود فاعلين للفعل الواحد، ومسؤولية الإنسان يوم الحساب عن أفعاله.

(22) انظر كتاب تاريخ الفلسفة العربية، لحنا فاخوري وخليل الجر، ج. 1، ص. 97.

بسقوط الخلافة العباسية في بغداد، عام 1258م، تغيّر شكل العالم، واختلفت موازين القوى، أُسدِل الستار على التفوّق العربي الإسلامي، وسعت الدول الطامحة في الغرب لتصدّر المشهد. لم تكن الفلسفة وحدها التي تراجعت، بل شتّى العلوم والفنون، فهي كفيفة تبحث دائمًا عن يد قوي يوجّه عصاها. استمرّت تائهة، تروح وتغدو بلا معنًى لأكثر من أربعة قرون، حتّى جاءت عيون رجال عصر النهضة في بقعة أخرى من العالم وقادتها.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فَلْنَبدأ مِن الصِفر

«قرار إدانة (22 يونيو 1633)

نحن:

غاسبارو بورغيا، صاحب المقام في كنيسة الصليب المقدَّس، في القدس؛ وفرا فيليس سينتيني، صاحب المقام في كنيسة القِدّيسة أناستازيا؛ وغويدو بنتيفوغليو، صاحب المقام في كنيسة القدّيسة ماريا ديل بوبولو؛ وفرا ديسيديريو سكاغليا، صاحب المقام في كنيسة القِدّيس كارلو، في كريمونا؛ وفرا أنطونيو باريارِيني، صاحب المقام في كنيسة القدّيس كارلو، في مقاطعة القدّيس أونوفريوس؛ ولاوديفيو زاكتشيا، صاحب المقام في كنيسة القدّيس بيترو، في فينكولي؛ وبرلينغييرو غيسّي، صاحب المقام في كنيسة القدّيس أوغسطينوس؛ وفابريزيو فيروسبي، صاحب المقام في كنيسة القدّيس لورينزو في بانيسبيرنا، برتبة كاهن؛ وفرانشيسكو باربيريني، صاحب المقام في كنيسة القدّيس لورينزو، في داماسو؛ ومارزيو جينيتي، صاحب المقام في كنيسة القدّيسة ماريا نوفا، وبرتبة شمّاس؛

-بفضل الله- كرادلة الكنيسة الرومانيّة المقدَّسة، المُكلَّفون بشكل خاص من قِبَل الكرسي الرسولي كمحقّقين عامّين ضد الفساد الهرطقي في كل العالم المسيحي.

حيث إنّه تَمّت إدانتك -يا غاليليو ابن الراحل فينسينزيو غاليلي فلورنتين، البالغ من العمر سبعين عامًا- في هذا المكتب المقدس، في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عام 1615؛ لأنّك متمسّك بالعقيدة الخاطئة التي يعلّمها البعض، بأنّ الشمس هي مركز العالم، ولا تتحرّك، وأنّ الأرض تتحرّك؛ ولأنّك علّمت هذا لتلاميذك؛ ولأنّك متواصل مع بعض علماء الرياضيّات الألمان حول هذا الموضوع؛ ولأنّك نشرت بعض الأبحاث التي تحمل اسم «حول البقع الشمسيّة»، وأوضحت فيها نفس الفِكر؛ ولأنّك فسّرت الكتاب المقدّس وفقًا لمعناك الخاص، حين كنتَ تردّ على الاعتراضات المُوَجَّهة إليك استنادًا إليه أحيانًا.

وحيث إنّا قد تلقّينا لاحقًا نسخة مِن مقال في شكل رسالة، قيل إنّك كتبتها إلى تلميذ سابق لك. وقد احتوى المقال على افتراضات متوافقة مع آراء كوبرنيكوس، ومتعارضة مع السلطة، والمعنى الحقيقي للكتاب المقدّس.

وحيث إنّ هذه المحكمة المقدّسة أرادت معالجة الفوضى والأذى الناجم عن تلك الآراء، والتي كانت تتزايد على حساب الإيمان المقدّس، فإنّه - بأمر من قداسته، ومن كبار الكرادلة العظماء والأكثر تقديسًا في محاكم التفتيش العليا- قد تمّ تقييم فرضيّتَي ثبات الشمس وحركة الأرض مِن قِبَل المقيّمين اللاهوتيّين، وكانت النتائج كالتالي:

إنّ افتراض أنّ الشمس هي مركز العالم، وأنّها بلا حراك، سخيفٌ وخاطئ مِن الناحية الفلسفيّة، وهرطقة من الناحية الرسميّة، لكونها تتعارض صراحةً مع الكتاب المقدّس؛

إنّ كون الأرض ليست مركز العالم، وغيرَ ثابتة، وتتحرّك حتّى مع الحركة النهاريّة هو أمرٌ سخيفٌ، وزائفٌ من الناحية الفلسفيّة، وخللٌ - في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأقلّ - في المعتقد من الناحية اللاهوتيّة.

وقد أردنا معاملتك برحمة في ذلك الوقت، لذلك تقرّر في المجمع المقدّس، الذي عقد بحضور قداسته، في 25 فبراير 1616 أن يأمرك الكاردينال اللورد الأعظم بيلارمين بالتخلّي تمامًا عن هذا الرأي الخاطئ. وفي حال رفضت القيام بذلك، فإنّ مفوّض المكتب المقدّس سيصدر لك أمرًا قضائيًا بالتخلّي عن هذه العقيدة، وعدم تعليمها للآخرين، وعدم الدفاع عنها، وعدم التعامل بها. وإذا لم ترضخ لهذا الأمر القضائي، يجب أن تُسجَن. ولتنفيذ هذا القرار، قد تم إعلامك وتحذيرك بشكل ودّي من قبل الكاردينال اللورد الأعظم بيلارمين. وفي اليوم التالي، وفي قصر الكاردينال اللورد الأعظم نفسه، وفي حضوره، تلقّيتَ أمرًا قضائيًا من قبل الأب مفوّض المكتب المقدّس، وبحضور كاتب عدلٍ وشهود، يفيد بأنّه يجب عليك التخلّي تمامًا عن الرأي الخاطئ المذكور، وأنّه في المستقبل لا يمكنك تبنّيه، ولا الدفاع عنه، ولا تعليمه بأيّ شكل من الأشكال، سواءً شفهيًا، أو كتابةً. وبعد أن وعدتَ بالطاعة، تم صرفُك.

بالإضافة إلى ذلك، فإنّه من أجل القضاء تمامًا على مثل هذه العقيدة الخبيثة، وعدم السماح لها بالتسلّل بعيدًا في الحقيقة الكاثوليكيّة؛ أصدر المجمع المقدّس للكتب المحرّمة مرسومًا يحظر الكتب التي تتناول عقيدة كنلك، وأعلنها كاذبة ومخالفة بشكل كامل للإنجيل والنص المقدّس.

وبما أنّه قد ظهر مؤخّرًا كتاب، طُبع هنا في فلورنسا العام الماضي، موثّق فيه أنّك المؤلّف، عنوان الكتاب هو «حوار لغاليليو غاليلي حول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النظامين العالميَّين الرئيسيَّين: بطليموس وكوبرنيكوس»؛ وبما أنه قد تم إبلاغ المجمع المقدّس بأنّ هذا الكتاب قد احتوى الرأي الخاطئ بخصوص حركة الأرض واستقرار الشمس، وأسهم في ترسيخه أكثر فأكثر، فقد تم فحص الكتاب المذكور بعناية، ووُجِد أنه ينتهك صراحةً الأمر الزجري المقدَّم إليك؛ لأنك في هذا الكتاب دافعت عن الرأي المذكور سابقًا، والذي تمّت إدانتك بسببه. ورغم أنك في الكتاب المذكور تحاول عن طريق حِيَل مختلفة تقديم الرأي نفسه، وذلك بتركه محل مناقشة، ووصفه بأنه مُحتمَل؛ إلّا أنّ هذا ما يزال خطئًا فادحًا للغاية، لأنه لا توجد طريقة يمكن أن يكون بها رأيٌ مخالف للكتاب المقدّس محتملًا.

لذلك، وبناءً على أمرنا، تمّ استدعاؤك إلى هذا المكتب المقدّس، وإخضاعك لقَسَم، واعترفتَ بأنّ هذا الكتاب كُتِب ونُشِر بوساطتك. واعترفتَ أنه منذ حوالي عشرة أو اثني عشر عامًا بعد تلقّيك الأمرَ القضائي المذكور أعلاه، بدأتَ في كتابة الكتاب المذكور، ثم طلبتَ الإذن بطباعته، دون أنْ توضّح لأولئك الذين أعطوك هذا الإذن بأنّك تحت هذا الأمر القضائي، الذي ينصّ على عدم التمسّك بمثل هذه العقيدة، أو الدفاع عنها، أو تدريسها، بأيِّ شكلٍ مِن الأشكال.

وأيضًا، اعترفت أنّ الكتاب قدّم حججك الخاطئة على أنها فعّالة بما يكفي لتكون قادرة على الإقناع، وليس من السهل دحضها. أعذارك التي قدمتها على ارتكابك هذا الخطأ كانت بعيدة عن نيّتك الحقيقية، حيث إنّك كتبت هذا الكتاب على شكل حوار، يشعر فيه كل شخص بالرضا الطبيعي عن أدق التفاصيل، ويظهر نفسه أذكى من الرجل العادي من خلال إيجاد حجج بارعة ومحتملة ظاهريًا، حتى لصالح الافتراضات

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخاطئة.

بعد أن تمّ إعطاؤك الشروط المناسبة لتقديم دفاعك، قدّمتَ شهادة بخط يد اللورد الكاردينال الأعظم بيلارمين، قلتَ إنّك حصلت عليها للدفاع عن نفسك من افتراءات أعدائك، الذين كانوا يدّعون أنّك أنكرتَ معتقداتك وعوقبتَ من قِبل المكتب المقدّس. تقول هذه الشهادة أنّك لم تنكر ولم تُعاقَب، بل أُخطِرتَ بالإعلان الذي أدلى به حضرته، ونشره المجمع المقدّس للكتب المحرمة، والذي ينص على أنّ فكرة حركة الأرض واستقرار الشمس تتعارض مع الكتاب المقدس، وبالتالي لا يمكن الدفاع عنها أو تبنّيها. نظرًا لأنّ هذه الشهادة لا تحتوي على عبارتين صريحتين هما «التدريس» و «بأي شكل من الأشكال»، فمن المفترض أن يعتقد المرء أنك نسيتهما بعد مرور أربعة عشر أو ستة عشر عامًا، ولهذا السبب التزمتَ الصمت بشأن الأمر الزجري عندما تقدمت بطلب للحصول على ترخيص لنشر الكتاب. خدعتَ الناشر، وجعلته يعتقد أنّك تشير إلى كل هذه الوثيقة ليس لتبرير الخطأ، ولكن من أجل الطموح المغرور. ومع ذلك، فإنّ الشهادة المذكورة التي قدمتها في دفاعك تزيد من صعوبة قضيّتك، حيث تقول إنّ الرأي المذكور مخالفٌ للكتاب المقدس، لكنّك تجرأت على التعامل معه، والدفاع عنه، وإظهاره على أنه محتمَل. لم تساعدك الشهادة عندما قمت بالابتزاز بمهارة ومكر حين لم تذكر الأمر الزجري الواقع عليك.

نظرًا لأنّنا نعتقد أنّك لم تقل الحقيقة الكاملة عن نيّتك، فقد اعتبرنا أنه من الضروري المضي قُدمًا ضدّك من خلال فحص صارم، قمت خلاله بالإجابة بطريقة كاثوليكيّة، ولكن دون نفي التهم المذكورة أعلاه، والتي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اعترفت بها، أو تم استنتاجها فيما يتعلق بنيّتك. لذلك، بعد أن اطّلعنا على وقائع قضيّتك ونظرنا فيها بجديّة، جنبًا إلى جنب مع الاعترافات والأعذار المذكورة أعلاه، وأيّ أمر منطقي آخر يستحق المشاهدة والنظر، توصّلنا إلى حكم نهائي ضدّك، وهو الوارد أدناه:

بأقدس اسمِ لربّنا يسوع المسيح، وأمّه الممجّدة مريم العذراء، وبعد انعقاد المحكمة، وبنصيحة ومشورة الأسياد الموقّرين في اللاهوت المقدّس، ومستشارينا أساتذة القانون، فإنّنا نعلن في هذه الوثيقة الحكمَ النهائي في القضيّة المعلّقة المعروضة علينا، وأطرافها: الجانب الأوّل/ المعظّم كارلو سينسيري، أستاذ القانون، والمدّعي العام لهذا المكتب المقدّس؛ الجانب الثاني/ أنت الجاني المذكور أعلاه غاليليو غاليلي، الحاضر هنا، والذي تم التحقيق معك، ومحاكمتك، واعترفتَ بالتهم على النحو الوارد أعلاه:

نقول، ونعلن، ونحكم، وننشر بأنّك -غاليليو المذكور أعلاه، وبسبب الأشياء التي تم استنتاجها في المحاكمة، والتي اعترفت بها على النحو الوارد أعلاه- جعلتَ نفسك وفقًا لهذا المكتب المقدّس مشتبهًا به بشدة بالهرطقة، وتحديدًا بسبب تبنّيك واعتقادك بالرأي الخاطئ، والمعارض للإنجيل والنص المقدّس، وهو أنّ الشمس هي مركز العالم، ولا تتحرّك من الشرق إلى الغرب، وأنّ الأرض تتحرّك، وليست مركز العالم، وقدّمت هذا الرأي على أنّه محتمَل، رغم الإعلان أنّه معارض للنصوص المقدّسة. وبناءً عليه، فقد استحققت كلَّ اللّوم والعقوبات التي فرضَتها وأصدرتها الشرائع المقدّسة، وجميع القوانين الخاصّة والعامّة ضد الجانحين من هذا النوع. ونحن على ·استعداد لإعفائك منها بشرط أن تكون أمامنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولاً، بقلب صادق، وإيمان غير متحيّز، وأن تنكر وتلعن وتكره الأخطاء والبِدَع المذكورة أعلاه، وكل خطأ وبدعة أخرى تتعارض مع الكاثوليكيّة والرسوليّة، وبالطريقة والشكل الذي سنصفه لك.

ولكن حتى لا يبقى هذا الخطأ الجسيم الخبيث، والتعدّي الذي ارتكبته دون عقاب مطلقًا، ولكي تكون أكثر حذراً في المستقبل، ومثالًا للآخرين على الامتناع عن جرائم مماثلة، فإنّنا نأمر بحظر كتاب «حوار» لغاليليو غاليلي بمرسوم عام.

من دواعي سرورنا، أن ندينك بالسجن الرسمي في هذا المكتب المقدّس. وكتكفير عن الذنب، نفرض عليك تلاوة المزامير السبعة مرّةً في الأسبوع، لمدّة ثلاث سنوات قادمة. ونحتفظ بسلطة تعديل، أو تغيير، أو التغاضي كليًا أو جزئيًا عن العقوبات، وعن التكفير عن الذنوب المذكورة أعلاه.

هذا ما نقوله، ونعلنه، ونحكم به، وننشره، وننفّذه، ونسجّله، بهذه الطريقة، أو بأيّ طريقة، أو شكل أفضل نستطيعه، أو نفكّر فيه.

وعلى هذا نوقّع نحن:

الكاردينال فيليس؛

والكاردينال غويدو؛

والكاردينال فرا ديسيديريو؛

والكاردينال فرا أنطونيو؛

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والكاردينال برلينغييرو؛

- والكاردينال فابريزيو؛

والكاردينال مارزيو.» (23)

(23) انظر كتاب قضيّة غاليليو: تاريخ وثائقي، لموريس فونيكيارو، ص. 287. الترجمة لمؤلّف هذا الكتاب/ مهنّد عميرة.

في زمن هذه المحاكمة، كان للكنيسة الكاثوليكيّة في أوروبّا سلطة على العلم والعلماء، ومن ذلك أنّها دأبت على متابعة الكتب المنشورة، ومارست الرقابة على محتوياتها، وامتلكت صلاحيّات إيقاف طبعها، ومحاكمة كتّابها. وحده الاستخدام المجحف للسلطة -الدينيّة في هذا العصر- تسبّب بتأخّر أوروبّا لقرون، أمّا الشعوب فلا ذنب لها في تخلّف الأمم، هذه من أكاذيب رجال السياسة. قالوا قديمًا: «الناس على دين ملوكهم»، يسيرون خلفهم أينما اتّجهوا، وقد كانت الكنيسة ملكًا غير متوّج في أوروبا، بنت سدًّا منيعًا ضد العلم، وهي تحسب أنّها تُحسِن صنعًا! وقبل أن يتّهمنا قارئٌ كلاسيكي أو ما بعد حداثي بظلم الكنيسة الكاثوليكيّة، وذلك بتعمّد عرض الواقعة من وجهة نظر واحدة؛ نقول له إنّ الكنيسة نفسها ندمت على حكمها ضد غاليليو، وبدأت في تخفيفه تدريجيًّا خلال قرون. سمح البابا بنديكت الرابع عشر عام 1741 بطباعة كتب غاليليو. وفي 1992، اعتذر البابا يوحنا بولس الثاني إلى غاليليو، وقرّر تكريمه، بعمل تمثال له في الفاتيكان، مركز المسيحيّة الكاثوليكيّة في العالم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

احترس من التعرّض لكبرياء الإنسان! رسالة لم يتلقّها غاليليو جيّدًا من سقراط، أو ربّما قدّر أنّ الإنسان قد تغيّر خلال كلّ هذه القرون. في الحقيقة، لم يختلف عليه شيء منذ وُجِد، الإيمان بمركزيّته وعلوّ كعبه على المخلوقات الأخرى سماته إلى الأبد. غاليليو الفرح باكتشافه لم يقصد أن يصفع كبرياء الإنسان، هذا البائس لم يتعمّد مخالفة الإله، ومع ذلك فقد أجرى عليه سبعة كاردينالات أحكامًا بالإقامة الجبريّة، ومنع كتبه. الكاردينالات الثلاثة الأخرون لم يصادقوا على الحكم. الدين واحد، والنّص واحد، والتهمة واحدة، ولكنّ قرار الحكم اختلف باختلاف التأويل، وليس هذا إلّا من صنيعة كبرياء الإنسان!

انتشرت أصداء الحكم على غاليليو، وصلت الأنباء إلى هولندا، حيث كان رينيه ديكارت عاكفًا على كتابة «العالَم». فزِع، وكاد أن يحرق أوراقه، ويمتنع عن الكتابة. (24) لا عجب، فقد شارك غاليليو الرأيَ القائل بدوران الأرض حول الشمس في كتابه الجديد. ولكن هيهات أن يستطيع كاتبٌ ذلك، سرعان ما غيّر رأيه، كما يليق بشاب مثله في منتصف الثلاثينيات. نشر أعماله لاحقًا، فلاقت الرفض والمنع من العديد من الجامعات والجمعيّات الدينيّة. وكحال غاليليو، احتاجت أوروبّا الكثير من الوقت للاعتراف بأعماله، إلى أن أصبحت كتبه تدريجيًا المرجع الأوّل للفلسفة في أرقى جامعات العالم الحديث، وأصبح هو «أبو الفلسفة الحديثة». جزء من عظمة الحضارة الأوروبيّة المعاصرة هو اعترافها بأخطاء الماضي بكل تواضع.

(24) انظر كتاب مقال عن المنهج، لرينيه ديكارت، ص. 98.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان ديكارت عالم فيزياء ورياضيّات وموسيقى. هذا المزيج بين المنطق المنهجي والإبداع الفنّي شكّل له عقلًا متفرّدًا، جعله يحاول الوصول بشكوك الفلسفة إلى يقين جازم، كذلك الخاص بالمعادلات الحسابيّة. بدأ مشروعه بالشك في كل شيء، حتّى التأكّد من شيء ما، لينطلق منه إلى يقين آخر، وهكذا حتى يتشكّل بناء فكره. ولكن ما هو الثابت الأوّل الذي انطلق منه ديكارت؟ بعد تشكيك في كل شيء: حسّي وغير حسّي، أيقن ديكارت أنّه - الذي يشك، ويُضلّل، ويفترِض، ويفكّر، ويقتنع - موجود، فكانت القاعدة اليقينيّة الأولى لديه: «أنا أشك، إذًا أنا أفكّر، إذًا أنا موجود».(25) انطلق من هذا اليقين إلى نقاط أبعد، وكان لزامًا عليه بعد أن عرف أنّ الإنسان موجود، أن يفكّر في ماهيّة هذا الإنسان، ثمّ أن يصل إلى مفهوم عن الكون.

(25) انظر كتاب التأمّلات في الفلسفة الأولى، لرينيه ديكارت، ص. 86.

ولكي لا نجرّ الموضوع إلى المزيد من التعقيد الفلسفي، سنكتفي بالتعرّف على ما وصل إليه ديكارت حول الحريّة. قال إنّ الجسم موجود، وفيزيائي، والعقل منفصل عنه، وغير فيزيائي، وهما عالَمان ليسا منفصلين تمامًا، صحيح أنّه في بعض الجوانب هناك استقلاليّة لكل واحد منهما، لكنّهما يتفاعلان، ويُظهر العقل سيطرة أكبر على الجسد، فيقوده في بعض الأحيان. عرف هذا «بثنائيّة ديكارت». العقل قائد الحواس، يُظهر سيطرة على العالم الفيزيائي الخارجي، فيتحكّم بالكثير من أحداثه وتصوّراته. العالم الخارجي من وجهة نظر ديكارت لا يصلنا بالشكل الذي هو عليه في الحقيقة، بل تخدعنا حواسّنا، وتهيّء لنا أشياء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على غير طبيعتها، الحل لفهمه هو ما أنتجه العقل من حسابات رياضيّة، لما تتمتّع به الرياضيّات من صدق أكبر ممّا تتمتّع به الحواس، ولما للعقل من سيطرة على الحواس. لفهم ذلك، فكّر في هذا المثال: إذا استخدمت البصر للنظر إلى الشمس ستظنّها صغيرة، لكن إذا استخدمت الرياضيّات ستعرف أنّها أكبر من الأرض. عليك أن تُخضِع العالم المادي لعالم العقل، وتحاول فهمه بقوانينه، ليس بالحواس. لذلك فالطبيعة وقوانينها لا تتحكّم في تصرّفاتنا بالقدر الذي نتوهّمه، والإنسان حرّ منها أكثر ممّا تصوّر له حواسه. أمّا الحتميّة فلم يثبتها ديكارت. حتّى الحتميّة الإلهيّة عنده غير مثبتة، لكنّ ذلك لا يعني أنّ الإله نفسه غير موجود. ديكارت أثبت في فلسفته وجود الإله، باعتباره «جوهرًا خالدًا ثابتًا قائمًا بذاته واسع القدرة». (26) خلق الله الإنسان غير كامل، الإله غير المتناهي خلق الإنسان بعقل متناهٍ، وهذا سبب الأخطاء البشريّة، لكنّ الإنسان حر، يتحمّل مسؤولية أفعاله، وعليه بدلًا من أن يسأل الله عن سبب خلقه غير كامل، أن يشكره لأنّه أعطاه وسيلة لتجنّب الخطأ، وهي التوقّف عن الحكم على الأشياء التي لا يعرفها بوضوح. (27)

(26) انظر كتاب التأمّلات في الفلسفة الأولى، لرينيه ديكارت، ص. 124.

(27) انظر كتاب التأمّلات في الفلسفة الأولى، لرينيه ديكارت، ص. 174.

إذًا، هل نفى ديكارت الحتميّة، وأثبت الحريّة؟ الإجابة لا. إنّ ديكارت -بل أيّ باحث مبتدئ- يعلم أنّ عدم الإثبات ليس نفيًا. ديكارت لم يثبت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجود أيّ تأثير خارجي على إرادة الإنسان، لكنّه لم يستطع نفيه. الأمر ببساطة أن تسأل شخصًا هل رأيت سيّارة مرّت من هنا؟ إذا كانت إجابته نعم، فقد أثبت مرور السيارة، ولكن إذا كانت إجابته لا، فهذا لا يعني أنّ السيّارة لم تمر فعلًا، قد تكون مرّت ولم يرها. الحتميّة قد تكون موجودة بدرجة ما، ولكنّ ديكارت لم يرها.

إنّ ديكارت من الأهمية التي تقتضي التركيز على أعماله بشكل متعمّق، وليس فقط حديثه عن الحريّة؛ لأنّه بدأ رؤاه بطريقة عبقريّة، وهي التخلّص من كل المعلومات السابقة، ومحاولة بناء معلومات جديدة مستندة إلى اليقين. الجزء الأوّل من هذه الطريقة -محاولة هدم كل شيء- كان بالغ التأثير على الفلسفة الحديثة. والنتيجة التي وصل إليها ديكارت: «أنا موجود»، هي نتيجة انطلقت من الفرد، وليس من العالم الخارجي، جعلت الفرد محور الاهتمام، والكون خاضع له، أو في الأقل مستخدَم لصالحه، وهو ما قد يعتبر تأسيسًا للفرديّة المعاصرة. لذلك لا يمكن فهم الفلسفات الحديثة دون التطرّق إلى النموذج الديكارتي بآليّاته ونتائجه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أسقف وملك، وشعب

في مطلع القرن السابع عشر، كانت أوروبا تكتوي على جمر حرب دامية، اشتعلت على إثرها القارّة كلّها تقريبًا، فيما عُرِف «بحرب الثلاثين عامًا»، التي بدأت صراعًا دينيًا بين الكاثوليك والبروتستانت. ولأنّ الساسة -بما يشهد به التاريخ- يستغلّون مختلَف أنواع الصراعات، ويوجّهونها صوب مصالحهم؛ فقد كانت سيطرة الدول على بعضها هي هدف المرحلة الثانية من الحرب. فرنسا الكاثوليكيّة -أيقونة الحريّة المعاصرة- انضمّت إلى البروتستانت لإضعاف سطوة النمسا! أمّا إنجلترا الأنجليكيّة -بقيادة الملك جيمس الأول- فقد التزمت الحياد. وهل يصح الحياد حين يقتتل الأهل والحلفاء! أحد الأطراف البروتستانت هو زوج أخت جيمس، والأطراف الأخرى موزّعة ما بين صديق، وحليف، وراعٍ للمصالح. أدركت إنجلترا أنّ الحياد مستحيل، فحاولت الصلح بين الأطراف، بالزواج، زفاف ولي العهد -تشارلز الأول - إلى ابنة أخت الأرشيدوق فريديناند الثاني -الامبراطور الروماني المقدّس - صاحب أعلى سلطة دينيّة كاثوليكيّة.(28) قوبل هذا الزواج بالرفض من الداخل والخارج، كان تشارلز كافرًا من وجهة نظر العروس! ولم يتردّد البرلمان الإنجليزي في مناقشة هذا الزواج علنًا، ورفضه. ما اعتبره الملك تدخّلًا سافرًا في الشؤون الخاصّة للأسرة الحاكمة يستوجب حل البرلمان حتّى إشعار آخر، وهو ما كان عام 1622م.

(28) انظر كتاب حرب الثلاثين عام، لجيفري باركر.

لم تنقضِ السنوات الثلاثة التالية حتّى مات جيمس، وخلفه تشارلز،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والحروب الضروسة قائمة تحيط بالمملكة. لم تشارك إنجلترا بالحرب بشكل حقيقي، لكنها تأثرت بها، لم تكن مستقرّة تمامًا من الداخل، كيف يستقر مَن يحيط به الموت من كل الاتجاهات! فرض الملك تشارلز إجراءات صارمة على المواطنين، وأيّده الأسقف وليم لاود كبير أساقفة كانتبري -أهم سلطة دينيّة في إنجلترا- ما أثار استياء البرلمان الجديد، الذي طالب بالمزيد من الحريّات. سئم الملك من ضغط البرلمان، ففعل كما فعل أبوه من قبل، حلّه عام 1629م، ولكن هذه المرّة لأحد عشر عامًا. بقي الوضع على حاله حتى انتفض الأسكتلنديّون - وكانوا خاضعين لنفوذ مملكة إنجلترا في ذلك الوقت - ولم يهدأوا إلّا ببرلمان جديد، والوعود بالمزيد من الحريّات الدينيّة والاجتماعيّة.

انعقد البرلمان الجديد شرسًا ثائرًا منتقمًا من أركان الدولة الأقوياء. حاكَم في فورته حلفاء تشارلز: النبيل (الإيرل) توماس ونتوورث -نائب لورد إيرلندا- والأسقف وليم لاود، وأعدمهما عامي 1641، و1645. ثم اندلعت الحرب الأهليّة في إنجلترا، وقادها البرلمان ضد الملك والكنيسة الذين انفردا لسنوات بالحكم، وقيّدا حقوق البروتستانت، وأتباع البيوريتانيّة. (29) وعلى إثر الحرب عُزِل الملك عام 1645، وسلّمه الأسكتلنديون إلى البرلمان في العام التالي. أصدر البرلمان حكمًا بإعدام الملك تشارلز الأول، ونُفّذ الحكم عام 1649. (30) وضعت الحرب الأهلية أوزارها بعد عامين. سقطت الكنيسة، ومعها الرقابة الاجتماعيّة والفكريّة، واستفز المناخ الملتهب الفلاسفة لينتجوا أعمالهم التي انصبّت على التنظير حول مفهوم الدولة. فإنجلترا ضائعة حائرة في هويّتها الجديدة، تحتاج مرشدًا يقودها إلى الاستقرار. ومَن غير الفلاسفة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والمفكّرين أهلٌ لهذا! كان توماس هوبز وجون لوك أهم هؤلاء الفلاسفة، الذين سعوا إلى تشكيل إنجلترا جديدة.

(29) مذهب بروتستانتي، أنشأ أتباعه كنيسة منفصلة عن الأنجليكيّة، وبدؤوا بالهجرة بسبب الاضطهاد.

(30) انظر كتاب حرب الملك: 1641 - 1647، لسيسلي ويدوود.

أنبأ إشعياء بني إسرائيل أنّ الإله سيقتل الوحش البحري الجبّار لفياثان -أو لوياثان: «فِي ذلِكَ الْيَوْمِ يُعَاقِبُ الرَّبُّ بِسَيْفِهِ الْقَاسِي الْعَظِيمِ الشَّدِيدِ لَوِيَاثَانَ، الْحَيَّةَ الْهَارِبَةَ. لَوِيَاثَانَ الْحَيَّةَ الْمُتَحَوِّيَةَ، وَيَقْتُلُ التِّنِّينَ الَّذِي فِي الْبَحْرِ.» (31) لكنّ توماس هوبز أراد إحياءه من جديد لمّا رأى أنّ الشعوب لا تستقيم أمورها إلا إذا كانت الدولة نفسها لفياثان. هذا ببساطة ملخّص كتابه الذي حمل الاسم نفسه.

(31) انظر الكتاب المقدّس، سفر إشعياء (27:1).

مثلَ ديكارت، في نفس عصره، كان هوبز يبحث عن ماهيّة الإنسان، وعلى العكس منه لم يقتنع بثنائيّة العقل والجسد، بل رأى أنّ الإنسان ليس إلا مادّة، يأتمر بأمر قوانين الحركة الفيزيائيّة، شأنه في ذلك شأن أي «شيء» في هذه الطبيعة. وهذا الإنسان في حالته الطبيعيّة عنيف ومليء بالخوف. من أجل هذا يمتلئ المجتمع بالحرب، ويسعى كل فرد فيه إلى تدمير الآخر. هذه الحالة المريعة تستوجب بناء دولة ديكتاتوريّة تشبه ذلك الوحش الكبير الذي يسيطر على تلك الرغبات الإنسانيّة الصغيرة، ويحكمها. هوبز أيضًا مقتنعٌ أنّ العقل مادّي، مثل الجسم، له

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كتلة وكثافة وحجم، فإذا شئنا فهم وظائفه -كالخيال والوعي- نسأل فيزيائيًا عنها. لم يكن بعيدًا عن ذلك الفكر المادي الذي يمتلكه هوبز أن يصوّر الحريّة على أنّها انعدام القهر المادي، ويستوي في ذلك العاقل وغير العاقل. إذا حجزنا الماء في الآنية، يصبح مقيّدًا، وحين نطلقه في النهر، يتحرّك بقوانين الكثافة النسبيّة، والمد والجزر، ودوران الأرض. الإنسان مثل الماء، إذا قيّدنا حركته -بالسجن مثلًا- يفقد حريّته، وإذا تركناه في الطبيعة، يصبح حرًا يسير بقوانينها.

هل الإنسان حر إذًا؟ أم مقيد بقوانين الحركة؟ الإنسان حر بعد أن تزول عنه العوائق الخارجيّة للحركة، لكنّ الحتميّة الطبيعيّة توجّه حريّته. مهلًا! ينبغي ألّا ننسى «الضرورة»، صحيح أنّ الإنسان حر، يستطيع ألّا يدفع ديونه مثلًا، ولكن الضرورة تقتضي أن يدفع أو يعاقَب، رضوخًا لقوانين الدولة، وحمايةً للمجتمع، كما تقتضي سريان الماء في الجداول لتتوازن الطبيعة. هذه الدولة بسلطتها المدنية وقوانينها المطلقة وعقدها الاجتماعي هي اللفياثان الذي ابتغاه هوبز. على الضرورة السياسيّة المتمثّلة بسلطة الدولة أن تقيّد الإنسان الحر المقيّد بقوانين الطبيعة. (32)

(32) انظر كتاب الليفياثان: الأصول الطبيعيّة والسياسيّة لسلطة الدولة، لتوماس هوبز.

أمّا جون لوك، فقد رأى الدولة كما أرادها البرلمان. وإذا سألتَ عن لوك في ميدان الحريّة، ستأتيك الإجابة بأنّه الرائد الأهم لليبراليّة. يكفيك أن تعلم أنّ أفكاره كانت أهم منبع استقى منه «إعلان الاستقلال الأمريكي»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مبادئه عام 1776م. بعد محاولات خجلة لرفض سلطة الكنيسة على الدولة، جاء لوك وأعلن صراحة دعوته إلى دولة مدنيّة، تنفصل فيها الكنيسة عن الحياة العامّة، وتستمد شرعيّتها من الشعب. لوك، الفيلسوف الحسّي الذي آمن بقدرة الحواس على الوصول للمعرفة المطلقة، نبذ ما لا تستطيع الحواس إدراكه، وأنكر وجود آراء فطريّة تولد مع الإنسان. لم يكن عجيبًا إذًا أن يطالب بتحييد الأفكار الدينيّة، لما تحمله من الكثير من الغيبيّات غير المحسوسة، والتي لا يستطيع العقل التعاطي معها. الحريّة بالنسبة إليه هي امتلاك القوّة أو القدرة على الاختيار والمفاضلة. وهو ما يستطيعه الإنسان، وما لا ينبغي للدولة أن تقيّده. (33)

(33) انظر كتاب مقال خاص بالفهم البشري، لجون لوك، ج. 2، ص. 170.

آراء لوك في الحريّة -خصوصًا السياسيّة منها- تشبه المفهوم المعاصر للحريّة. وأريد أن أعيد الإشارة إلى جملة سبق ذكرها، وهي أنّ أفكار لوك عن الدولة كانت المرجع الأول لتوماس جفرسون حين وضع بنود إعلان الاستقلال الأمريكي. ماذا يعني هذا في ظل هيمنة أمريكا المعاصرة على كل شيء؟ يعني أنّ مفهوم لوك عن الحرية هو المفهوم الذي تمتلئ به القواميس المعاصرة، وتحتفي به الأكاديميا باعتباره واحدًا، لم يأتِ غيره، ووحيدًا بين المختصّين. إنّ شأن مفهوم الحرية شأن غيره من المفاهيم التي يتبنّاها القوي، ويقف الضعيف أمامها مذهولًا، يتحسّر على تخلّفه، ويظنّ أنّ نهضته وتطوّره لا تأتيان إلّا بنسخهما وتعميمهما على الناس. يجدر بنا قبل أن نغادر هذه الصفحة من تاريخ أوروبا أن نرى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المنظور الآخر من الصراع، ونحاول الإجابة على أسئلة من نوع: ماذا سيحصل لو كان جيفرسون - أو آلة صنع القرار الأمريكيّة- معجبًا بهوبز بدلًا من لوك؟ هل كنّا سنرى مفهومًا آخر للحريّة يستقر في أذهان الناس حول العالم؟

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مادّي أم لا مادّي؟

تستحق سنة 1632 أن تُخلَّد في تاريخ الفلسفة، فيها وُلِدَ جون لوك في إنجلترا، وباروخ سبينوزا في هولندا. لم تجمعهما سنة الميلاد فقط، بل بداية الطريق نحو فهم الإنسان، فكلاهما كان ماديًا. وقد استوفى لوك حقَّه فيما بيّنا من كلامه، وجاء الدور على سبينوزا، لنتكلّم الآن عن فلسفته، ورأيه في الحريّة. أنبأنا سبينوزا أنّ الإنسان كيانٌ متصلٌ بالطبيعة، وتابعٌ لها، ومتأثّرٌ بها بشكل كلّي. وفيها أجسام ماديّة أخرى، خاضعة لها أيضًا، تتعايش في مجتمعها، فهي ليست في عزلة عن بعضها. وعندما يتعامل الكيان البشري مع الأجسام الخارجيّة فإنّه يتأثّر بها على شكل انفعالات. الطبيعة ميدان الوجود، والإله سيّدها، والأجسام الماديّة - بما فيها الإنسان - يأتمرون بأمره، ويذعنون لإرادته. إرادة الإنسان محكومة بالطبيعة، ومقيّدة بالانفعالات، قوّته على الفعل هي جزء من قوّة الطبيعة - أو الله بمعنى أدق.

الإنسان إذًا مجبور، وأفعاله حتميّة، هكذا أخبرنا سبينوزا. رغم هذا الوضوح الساطع، سبينوزا ليس توافقيًا، لا توافقيٌ إذًا؟ كلّا. هذا ليس لغزًا. صحيح أنّ الإنسان يولد مقيّدًا، لكن هناك سبيلٌ إلى حريّته، يسلكه مَن يحقّق أمرين: يحكمُ انفعالاته بعقله، ويعرف غاية أفعاله كي يرغب في الخير ويتجنّب الشر. وعليه فالعقل - وعلينا ألا ننسى أنّه مادّي محكوم بالقوانين الطبيعيّة - هو مفتاح الحريّة. إذا شاء الإنسان أن يتحرّر عليه أن يكبح انفعالاته بعقله، ويعي أسباب أفعاله، فيوجّهها نحو الخير. ولكن ما هو الخير؟ هو ما نعلم علمًا يقينًا أنّه ينفعنا. وهو نقيض الشر،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي نعلم علمًا يقينًا أنّه يحول دون تحقيقنا لخيرٍ ما. أطنب سبينوزا في شرح الفضائل، باعتبارها لَبِنات الطريق نحو الحريّة، فذكر منها: السعي إلى حفظ الكيان، والمجد، والفرح، والتواضع، والحب، والأريحيّة. كما تحدّث عن الرذائل المرفوضة، التي تدمّر ذلك الطريق، كالتذلّل، والزهو، والرغبة المفرطة، والخوف، والمكر، والكراهية، والأمل -لأنه مرتبط بالخشية - والشفقة. (34)

(34) انظر كتاب علم الأخلاق، لباروخ سبينوزا.

الحريّة شهادة، يولد الإنسان دونها، وينهي متطلّبات معيّنة للحصول عليها. هذا تصوّر رائد، أحال ذهني إلى فكرة فك الارتباط بين الحريّة والحكم المطلق على وجودها، بعض الناس أحرارٌ والبعض الآخر لا. لنذهب أبعد من ذلك، هل شروط سبينوزا وحدها هي متطلّبات الحريّة؟ أرى أنّ نفكّر في أمور أخرى تصلح أن تكون شروطًا، كالفرص والاحتمالات المتاحة عند الاختيار. دخل رجلٌ مقهًى، وطلب من النادل مشروبًا غازيًا، هو حرّ حتّى الآن، قال النادل إنّ هذا المقهى لا يقدّم إلّا الشاي والقهوة، ما زال الرجل حرًّا، يستطيع الخروج والبحث عن مكان آخر فيه ضالّته، لكنّ الأمر ليس بهذه البساطة، فقد يستسلم لخيارات النادل. يبدو استسلامه قرارًا حرًّا، لكنّ النادل وضعه أمام خيارات جديدة هنا، قهوة أو شاي أو خروج لمكان آخر، هذه الاحتمالات لم تكن في حسبان الرجل عند بداية اتّخاذه لقراره. أحيانًا تكون الخيارات أعقد من ذلك، امرأة تعيش في ضواحي قرية «بلشوي كونالي» الروسيّة قرّرت - بكامل حريّتها - أن تأكل مانجا مصريّة، ما فرصة إجراء مثل هذا القرار؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القرن السابع عشر لم يكن زمان المادّيّة. لم يكن أيّ عصر في الفلسفة زمن أيّ شيء. لطالما وُجِدَت المدرسة ونقيضتها في الوقت نفسه، وفي المكان نفسه أحيانًا ليست بالقليلة. ويبقى المجد للأقوى، الذي يستطيع أن يسوِّق فكره، أو يفرضه. ربّما كان أهمّ الفلاسفة غير الماديّين في القرن السابع عشر الأسقف جورج بيركلي الذي أنكر الطبيعة الفيزيائيّة للإنسان، وللأشياء أيضًا! ما هي الأشياء إذًا عند بيركلي إذا لم تكن مادّيّة؟ هي ما يدركه العقل بناءً على معلومات الحواسّ إليه. الأشياء توجد داخل عقل الإنسان، لا شيء يوجد خارجه! عند بيركلي العقل هو السيّد الذي يفرض تصوّراته على الأشياء، وكلّ ما يحدث في الخارج تم صنعه داخل هذا العقل. قوبلت نظريّة بيركلي بالرفض الشديد. ولم يكن هذا عجيبًا في ظلّ سيادة الفكر المادّي على أوروبّا وقتها. إيّاك أن تظن أنّ الفكر الأكثر جودة هو الذي ينتشر!

قال بيركلي: «مهما كانت القوّة التي قد أمتلكها على أفكاري الخاصة، أجد أنّ اختيار الأشياء التي تدركها الحواس ليس له اعتماد مماثل على إرادتي. عندما أفتح عيني في وضح النهار، ليس من سلطتي أن أختار ما إذا كنت سأرى أم لا، أو أن أحدّد ما هي الأشياء المعيّنة التي يجب أن تقدّم نفسها لوجهة نظري. وكذلك السمع والحواس الأخرى، الأفكار المطبوعة عليها ليست من إرادتي. لذلك هناك إرادة أو روح أخرى تنتجها.» بما أنّ كل الملاحظات على الأشياء الخارجيّة مصدرها عقل الإنسان، فلا يوجد سبب للمفاضلة أو الاختيار بينها، ممّا ينسف مفهوم الحريّة القائم أساسًا على الاختيار. أنتجت نظريّة بيركلي مفهومًا لا توافقيًا للحريّة. أنكر وجودها، وتحدّث عن قوّة أكبر من شأنها أن توجّه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإنسان. (35)

(35) انظر كتاب مبادئ المعرفة الإنسانيّة، لجورج بيركلي، ج. 1، ص. 45.

ولكن هل الأشياء لا تمتلك هويّة فعلًا؟ هل يُشكّل عقلنا الأشياء كما يشاء؟ إذا كانت الإجابة نعم، لماذا نحسّها كلّنا بالطريقة نفسها؟ نتّفق كلّنا على أنّ للطماطم لونًا أحمر وشكلًا دائريًا، فكيف احتالت عقولنا - كلّنا - علينا، حين صوّرت لنا ذلك!

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السببيّة: هلاوس عقليّة

لو سألتَ فيلسوفًا ماديًا، أو فيزيائيًا مبتدئًا، أو حتى رجلًا لم يتلقَّ حظَّه من التعليم: ماذا تتوقّع بعد رؤية البرق؟ ستأتيك الإجابة الواثقة: الرعد. ديفيد هيوم كان ليقدّم إجابة مختلفة على هذا السؤال، مفادها أن تتمهّل، ولا تستعجل الحكم! إن جادلته وقلت له: إنّ البرق والرعد يحدثان معًا، وهما نتيجة تصادم جسيمات مشحونة داخل السحب، لكنّ البرق يصلنا قبل الرعد؛ لأنّ الضوء أسرع من الصوت، لو جادلته بذلك لقال: السببيّة موجودة، ولكنّها ليست ضروريّة، لا يمكن تقديم تبرير مقبول عقليًا أو طبيعيًا لها، ما نعرفه هو الارتباطات الماضية، ولا يمكن استخدامها لتنبؤات مستقبليّة. هذا التنبؤ الذي اعتدنا القيام به ليس إلّا استعدادًا ما - في عقلنا البشري - بحكم العادة.

السببيّة -التي أخذ منها هيوم موقفًا حذرًا متشككًا- تعني أنّ حدثًا ما يؤدي إلى حدوث حدثٍ آخر، أو مجموعةٍ من الأحداث. في مثالنا السابق، تسبّبت الجزيئات المشحونة داخل السحب بحدوث البرق والرعد. حجّة هيوم في تشكيكه في السببيّة هي ظنّه بأنّ الكثير من العلاقات بين الأحداث انطباعيّة، عقولنا مسؤولة عن صناعتها بشكل غير دقيق، ما خلق لدينا اعتقادًا راسخًا حول تتابع أحداث معيّنة، اعتدنا عليه حتى أصبح قانونًا. لا يمكن إثبات هذا الارتباط، ولا يمكن الجزم بضرورته إن أُثبت، لذلك لا يمكن اعتباره قاعدة مستقبليّة تضمن تكرار التجربة نفسها في كل مرّة لاحقة. لم تكن مشكلة هيوم مع فكرة وجود قوانين طبيعيّة، بل تمحورت حول عدم منطقيّة الجزم بتتابع سببي لهذه القوانين. فما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أدراك، لعلّ ما حدث في الماضي قد لا يحدث في الحاضر، أو المستقبل!

(36)

(36) انظر كتاب بحث في الفهم الإنساني، لديفيد هيوم، ص. 61.

لمنهج الشك الذي أتبعه هيوم أثر بالغ على مفهومه للحريّة. بالنسبة إليه الحريّة هي: «قوّة التصرّف أو عدم التصرّف، وفقًا لما تحدّده الإرادة.» الإنسان يمتلك هذه القوّة، لذلك هو حر، لكن ينبغي أن يجعلها ضروريّة. والضرورة هي «التوحيد -أو التناسق- الذي يمكن ملاحظته في عمليّات الطبيعة، حيث ترتبط الأشياء المتشابهة معًا باستمرار.« إن لم توجد الضرورة الطبيعيّة في أفعال الإنسان الحرّة لأصبحت عشوائيّة، غير مرتبطة بعمليّات الطبيعة، وهنا فقد حريّته. الضرورة الطبيعيّة تقيّد حريّة الإنسان، وتفرض على تصرّفاته التماهي مع الطبيعة، وهذه هي الحتميّة الطبيعيّة. أكّد هيوم إذًا على وجود الحتميّة وحريّة الإرادة، لذلك من الممكن اعتباره توافقيًا. (37) تماهي تصرفات الإنسان مع الطبيعة ضروري؛ لأنّ هذا التوحيد هو ما يجعل الإنسان أخلاقيًا. مع ملاحظة أنّ الأخلاق بالنسبة لهيوم هي الصفات التي تنفع الناس، وليست الفضائل والرذائل التي يدّعي العقل التمييز بينها. الأخلاق من صنع الخبرة الإنسانيّة، ولا شأن للتنظير العقلي بها. بما أنّ الإنسان هو ابن الطبيعة، ويتصرّف كما تقتضيه ضرورتها؛ فكلّ الناس يملكون بالفطرة عاطفة الخيريّة التي هي أساس الأخلاق. علينا ألّا ننسى أنّ الإنسان حين يستخدم حريّته ينبغي أن يحترس من الأحكام المسبقة في ذهنه، والتي خلّفتها التجارب السببيّة السابقة. (38)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(37) انظر كتاب بحث في الفهم الإنساني، لديفيد هيوم، ص. 82 - 98.

(38) انظر كتاب استفسار عن مبادئ الأخلاق، لديفيد هيوم، ص. 106 - 124.

لا يمكن دراسة جلّ الظواهر الطبيعيّة دون التطرّق للسببيّة، بل والإيمان بها أيضًا. سقوط الأجسام إلى الأسفل يحصل منذ بدء الخليقة -أو منذ البدء بمراقبة الجاذبيّة في الأقل- إذا رفضنا السببيّة، أو ضرورتها، هذا يعني رفض توقّع سقوط الأجسام في الغد، لأنّه - على طريقة هيوم - ينبغي علينا التأنّي قبل الربط بين الجاذبيّة واقتراب الأجسام من الأرض. عندها تصبح دراسة الجاذبيّة عبثًا، لماذا ندرسها في حين أنّنا لا نتوقّع بجدّيّة تأثيراتها المستقبليّة! ومثلها كلّ القوانين الطبيعيّة.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الميتافيزيقي ليس ميتافيزيقيًا

استحوذت التجريبيّة (39) على أوروبّا في القرن الثامن عشر، تسلّلت من كتب الفلاسفة ونقاشات الأكاديميّين إلى مقاهي العامّة، مَن لم يؤمن بها ألِف وجودها في الأقل. أصبح الكثير من الناس ينكرون غير المحسوس دون تردّد، ولم يجد بعض المثقّفين حرجًا من الإعلان الصريح أنّهم ملحدون. في عصر «التنوير»، أمست أمور كثيرة بالنسبة إلى البعض- كالملائكة، والشياطين، وحتّى الإله - جزءًا من الماضي! لم تستطع الكنيسة -التي كانت شرسة في يوم ما - في مواجهة الموجة الجديدة من الأفكار أكثر ما تستطيعه أرملة تضع يدها على خدّها حين تفقد زوجها. قال عمّانوئيل كانط واصفًا النظرة إلى الميتافيزيقا في عصره: «وقد كان زمن كانت - الميتافيزيقا - تدعى فيه مَلِكة كل العلوم. ولو حسبنا القصد بمثابة فِعل، لكانت تستحق فعلًا رتبة الشرف هذه بفضل الأهميّة الفريدة التي لموضوعها. لكنّ موضة العصر الآن تريد ألّا تُظهر لها إلّا الازدراء. وها السيّدة العظيمة، وقد أُبعدَت وأُهملَت، تنتحب كما هيكوب.» (40)

(39) التجريبيون يؤمنون أنّ المعرفة الإنسانية تتشكّل عن طريق الحواس والخبرة، وينكرون امتلاك الإنسان أيّة أفكار فطريّة، أشهرهم جون لوك.

(40) انظر كتاب نقد العقل المحض، لعمّانوئيل كانط، ص. 25.

وقد التقف كانط فلسفة هيوم معجبًا، اعتبرها شيئًا من ذلك الذي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقلب آليّة التفكير، ويحوّلها عن مسارها. لم يقف أمام إعجابه صامتًا كعاشقٍ قليل الخبرة، بل أضاف لمسته التاريخيّة إلى نظريّة المعرفة، التي تبلورت في كتابه الأشهر: نقد العقل المحض. رأى كانط أنّ من طبيعة الإنسان أن يرهق عقله بالأسئلة، فيسعى للإجابة عنها باستخدام التجربة، التي تكون بلا شك نهجًا مناسبًا للمراحل الأولى من الإجابة. لكنّ الأسئلة تولّد أسئلة أخرى، وهكذا إلى ما لا نهاية. في مراحل قد لا تكون متقدّمة من دوّامة الأسئلة هذه تصل استفسارات الإنسان به إلى ميدان خارج حدود عقله، وهو الميتافيزيقا، حيث لا تستطيع التجربة وحدها الوصول إلى إجابات مُرضية، حينها يستخدم الإنسان مناهج عقليّة أخرى، ظنًّا منه أنّها فعّالة. هذه المناهج بحاجة إلى تنقية بهدف تحقيق أسس المعرفة البشريّة. التنقية لا تعني بالضرورة استبعاد الميتافيزيقا، كما فعل الكثيرون، بل رسمُ حدود لها. وقد نقبلها إذا استوفت شروط كونها ضروريّة، وشاملة، ولا يمكن إثبات خطئها، وليس فيها استثناءات. وبعد تلك التنقية القائمة على مبادئ نقد العقل المحض، نستطيع دمجها مرتاحين بالعلم. (41)

(41) انظر كتاب نقد العقل المحض، لعمّانوئيل كانط، ص. 25 - 27.

معرفة الإنسان إمّا أن تكون تحليليّة أو تأليفيّة. لنتأمّل هذا المثال حتى نعرف الفرق: الأجسام ممتدّة فيزيائيًا وثقيلة. الكلام هنا عن الأجسام، لننظر إلى أيّ جسم، إنّ كونه ممتدًّا هو جزء من تعريفنا له، لذلك صفة الامتداد نابعة من ماهيّة الجسم، ومتضمّنة في هويّته. هذه الطريقة من المعرفة التي تحيلنا إلى إدراك عناصر الموضوع - الجسم - بوصفها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شيئًا متضمّنًا فيه تسمّى المعرفة التحليليّة. أمّا الجزء الآخر من المثال جاء بفعل المعرفة التركيبيّة، وهو إحالة شرط ثقل الوزن إلى الجسم رغم أنّه خارج عن ماهيّته. إنّ ربط مفهوم بموضوع خارج عن ذاته هي المعرفة التأليفيّة التي قصدها كانط. هذه المعرفة هي التي تضيف أشياء إلى أخرى بشكل غير دقيق. بهذا الاختلاط تفسد المعرفة البشريّة بمرور الوقت. السؤال الرئيسي الذي حاول كانط الإجابة عليه في نقده هو: كيف يمكن إصدار أحكام مسبقة تأليفيّة؟ كان هذا السؤال بمثابة عقد محاكمة للمعرفة البشريّة عمومًا، والميتافيزيقا بشكل خاص. (42)

(42) انظر كتاب نقد العقل المحض، لعمّانوئيل كانط، ص. 48 - 49.

إنّي وإن كنت أنتهج في هذا الكتاب الهروبَ من دهاليزِ الفلسفة المُتيهة ومصطلحاتها المرهقة، وإلقاءَ المعلومات أمام القارئ ليستسيغها دون ضجر، لكني آبى أن أخدعه بخلاصات تضلّله. مفهوم كانط -وغيره- عن الحرية لا يمكن اجتزاؤه من رؤيته الفلسفيّة، وتقديمه كجملة جاهزة، فهو وجهة وصل إليها ماشيًا في العديد من الطرق، التي لا بد لنا من الاطّلاع عليها، ولو بشكل خاطف، وهكذا تُفهَم الفلسفة. لذلك، وبعد أن تطرّقنا إلى ملامح فكر كانط، ووجهة نظره عن المعرفة؛ أصبح مناسبًا الآن أن ننظر إلى مفهومه عن الحريّة.

النهج التجريبي لا يصلح مطلقًا لتأسيس قوانين أخلاقية؛ لأنّها تفتقد شرط الشموليّة التي تجعلها صالحة لجميع الكائنات العاقلة. الأخلاق إذًا هي من ذلك الغامض الميتافيزيقي، الجالس في قفص المحاكمة التي يجريها كانط، المشرّع والقاضي! وقد حكمت المحكمة على الأخلاق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باعتبارها مبدئًا قبليًا، ناشئًا عن العقل لا التجربة، لا يمكن إثباتها ولا نفيها، براءة لعدم كفاية الأدلّة كما يحلو للقضاة القول. ولكن إذا كانت الأخلاق موجودة فعلًا، فإنّ الاستقلال الذاتي للإرادة هوَ أهم مبدأ تقوم عليه، استطاع كانط أن يثبت ذلك بشكل تحليلي. أما حريّة الإرادة نفسها فليست من ماهيّة الإنسان، لذلك هي قضيّة تركيبيّة -تأليفيّة- صنعها العقل البشري، لا يمكن إثباتها فقط بتحليل تصوّرات الإرادة. إنّما يمكن إثباتها باعتبارها أهم قضيّة أخلاقيّة، في حال القدرة على إثبات وجود الأخلاق. هذا باعتبار أنّ حريّة الإرادة بالنسبة للإنسان هي ببساطة قدرته على الاختيار. (43)

(43) انظر كتاب ميتافيزيقا الأخلاق، لعمّانوئيل كانط، ص. 131 - 142.

إنّ مسألة تنقية المعرفة قضيّة هامّة جدًّا، يحتاجها العقل البشري، لتصفية ما خالطه من أوهام. وهي حجر الأساس الذي يرسم ملامح طريق معرفيّة سليمة، أركانها واضحة. وما أحوج الإنسان لأن يعرف الفرق بين الأولويّات والثانويّات، بين المهم والطارئ! الأجدر بهذه المسألة لمحوريّتها أن تتخطّى ميادين الميتافيزيقا، والأخلاق؛ وأن تتجاوز مشروع كانط لتصل إلى مشاريع عصريّة، ملائمة للمشاكل الحاليّة التي تواجه الجنس البشري. وعلى من يشتغل بها، أو يتداولها في أحاديثه العامّة؛ أن يكون واعيًا للمشروع المضادّ، الذي يقوده التجريبيّون، إذ يريدون ببساطة تنحية كل ما هو غير محسوس، دون تكلّف عناء فحصه. وكم رمى قومٌ وراء ظهورهم ما هو مفيدٌ لهم!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منهزمٌ وشرس، أم شرش ومنهزم!

في الزمن نفسه الذي كان كانط يحاكم فيه الميتافيزيقا، ليبقي على ما يقرّه المنهج العلمي منها، ويبعد ما خالطه الوهم؛ اختار بارون دي هولباخ نهجًا أكثر شراسة في هجومه على الأديان، خصوصًا الدين المسيحي. بعض التصرّفات التي تبدو في ظاهرها قاسية ليست إلّا أفعالًا انهزاميّة، لو فكّرنا فيها جيّدًا لوجدنا أنّها هروب سهل من المسؤوليّة. أفعالٌ أخرى تظهر على أنّها متساهلة، لكن في حقيقتها تنطوي على صفات لا يستطيعها إلّا الأقوياء، كالصبر والعزيمة والتخطيط. توجّهات كانط وهولباخ من الميتافيزيقا هي مِن تلك السلوكيّات المشكلة على الفهم السطحي. سلك كانط الطريق الأصعب، الذي لا يسلكه إلّا الأقوياء المخلصون، وبدا متساهلًا لكثير من الناس، حتّى إنّ نيتشة وصفه - كما أذكر - بنصف فيلسوف ونصف قسّيس. أمّا هولباخ فقد قرّر إقصاء الميتافيزيقا، حكم بإعدامها دون محاكمة، ووجّه طاقته لذمّها. وهذا هو التخاذل بعينه. حريّ بالفيلسوف أن يسلك الطرق الشاقّة، وإلّا فليجلس على مقاعد العامّة!

عُرِفَ هولباخ بالإلحاد بين دوائر معارفه الضيّقة فقط؛ لأنّه كتب باسم مستعار. لم يشأ أن يظهر رؤاه مُوَقّعةً منه، ربّما خشي أن يكون كبش الفداء الذي يصب عليه ما تبقى من مؤمنين جامَ غضبهم. قال فيما قال إنّ الكون مادّة في حالة حركة، مقيّدة بقوانين طبيعيّة من سبب وتأثير، والإنسان -بجسده، وروحه، وعقله- جزء من مادّة الطبيعة، تفرض عليه قوانينها دون أن تستشيره أو تخيّره. لا مجال للحريّة أبدًا في هذه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المنظومة الطبيعيّة. وهذا منتهى الحتميّة. (44)

(44) انظر كتاب نظام الطبيعة، لبارون دي هولباخ، ص. 88.

هولباخ ماديّ، وهيوم كذلك، بداية واحدة، ولكنّ النتائج المتعلّقة بالحريّة مختلفة. هذا قانون الفلسفة الأوّل -كما أراه- النقطة «أ» ليس بالضرورة أن توصل إلى النقطة «ب»، هي متاهة كبيرة، خارطة متشعّبة الطرق، يمضي الفيلسوف فيها حتى يكاد يتوّه من يلحق به. لا ضير ألّا يكون لدينا كبشر فلسفتنا الخاصّة، ولا عيب أن نعجب بفلسفة ما، فلم يُخلق كل الناس فلاسفة، ولكن قبل أن نتبنّى فلسفة هيوم أو هولباخ أو غيرهم، علينا أن ندركها، من حيث بدأت إلى نهايتها، لا أن نمسك بأطرافها النهائيّة، ونعرضها على شكل اقتباسات وملخّصات. هذا احتيال على العِلم، تأباه أخلاق طلّابه. والأمر في التنوير أصعب، فالدعوة إلى «تنوير على غرار أوروبّا» تقتضي قراءة المرحلة التاريخيّة، والتمعّن في غليظ أفكارها، من أجل تنقيتها بما يناسب عقلنا وثقافتنا، لا نسخها كما هي. لو كان الشرق رجلًا، لكان أسهل عليه ألّا يأكل أو يشرب على أن ينكر الميتافيزيقا، أو يحاكمها حتّى! نحتاج إلى مشاريع فلسفيّة مناسبة لعصرنا، ولموقعنا على الخريطة، تنطلق من مفاهيمنا ورؤانا، تشبهنا، وإلّا لفظتها المنظومة الواعية وغير الواعية لعقلنا.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مشكلة اسمها دولة

«يولد الإنسان حرًا، ويوجد الإنسان مقيدًا في كل مكان، وهو يظن أنه سيد الآخرين، وهو يظل عبدًا أكثر منهم، كيف وقع هذا التحوّل؟ أجهل ذلك، وما الذي يمكن أن يجعله شرعيًا؟ أراني قادرًا على حل هذه المسألة.» (45) هكذا رأى جان جاك روسو الحالة الطبيعية للإنسان، حريّة فطريّة متناغمة مع الطبيعة، فُقدَت بسبب تواجد الإنسان مع «الآخرين». الإنسان يبقى حرًا ما دام وحده، ويفقد حريّته بانتمائه لمجموعة ما.

(45) انظر كتاب العقد الاجتماعي، لجان جاك روسو، ص 23.

منذ الولادة وجّهت الطبيعة الإنسان نحو الحريّة بمنحه وسائل مناسبة. الطفل تتجلّى حريّته باللعب والحركة، وضعت الطبيعة فيه الرغبة في الاستكشاف، وممارسة حريّته الفيزيائية بلا حدود. لكن حريّة الإنسان تقل عند اختلاطه بغيره، فهذا الإنسان الحر له أهواء لا أخلاقية يسعى إلى تحقيقها. تأمّل هذا المقطع لروسو نفسه: «يخرج كل شيء من يد الخالق صالحًا، وكل شيء في أيدي البشر يلحقه الاضمحلال. يُكره الإنسان الأرض على إنبات ما تخرجه أرضٌ سواها، ويُكره الشجرة على حمل ثمار شجرةٍ غيرها. يخلط بين الأجواء والعناصر والمواسم، ويخصي كلبه وحصانه وعبده. يقلّب كلَّ شيء، ويشوّه كلَّ شيء. يحب المسخ والإمساخ، ولا يريد شيئًا على الوجه الذي برّته به الطبيعة حتى ولو كان ما برّته الطبيعة إنسانًا مثله! فهو يأبى إلّا أن يُروّض له، كأنّه جواد ركوب، وأن يُصاغ على هواه كأنّه شجرة في بستانه.» (46)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(46) انظر كتاب إميل: تربية الطفل من المهد إلى الرشد، لجان جاك روسو، ص. 24.

ما العمل إذا كانت الحاجة إلى الآخر ضروريّة لا مناص منها؟ لم يعش الإنسان بمفرده منذ بدء الخليقة. بحث آدم -عليه السلام- عن حوّاء، وعاش قربها. من أجل هذا تتكوّن المجموعات، تبدأ بسيطة، أسرة، ثمّ عشيرة، حتّى نصل إلى الدولة. والدولة لا بد لها من قوانين تسيّرها، لا نتخيّل أن يعيش كلّ بقوانينه، وهذا عائق آخر أمام الحريّة الفطريّة التي يولد الإنسان عليها! كيف السبيل إذًا إلى مجتمع يعيش فيه الإنسان حرًا أمام عوائقِ تَجَمُّعِه مع الآخرين؟

كان هذا السؤال هو محور الكتاب الأشهر لروسو: العقد الاجتماعي. الإجابة هي أن تكون إرادة الدولة هي نفسها إرادة الأفراد الطبيعيّة. يحصل ذلك فقط عندما يملك الشعب حريّته المدنيّة، التي تخوّله سن القوانين المناسبة له، وحده العقد الاجتماعي يضمن ذلك. (47) إذًا هي حريّة مقابل حريّة! التخلّي عن الحريّة الفطريّة الطبيعيّة مقابل اكتساب حريّة مدنيّة وأخلاقيّة. هذه الصفقة الرومانسيّة التي قدّمها روسو تليق به كأديب وعالم موسيقى ومصمّم رقصات، أمّا الجزء المتفلسف منه فلم يحضر الاتفاق. انهار مشروعه حين استبدل أوّل لبنة فيه، كأنّ المهم بالنسبة إليه هو أن يمسّ الإنسان أيّ جانبٍ من جوانب الحريّة!

(47) انظر كتاب العقد الاجتماعي، لجان جاك روسو.

هل صفقة روسو هذه قابلة للتحقيق؟ هل تستطيع إرضاء كل الناس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالعقد الاجتماعي؟ هل تحصل على موافقة 100% منهم حين تسن أيّ قانون؟ الإجابة لا بشكلٍ قاطع. لم يعرف التاريخ ذلك، حتّى في الانتخابات المزوّرة المثيرة للضحك حدّ الشفقة، ينجحُ الرئيس بنسبة 99.99%. والنتيجة هي أنّ جزءًا من الشعب فقد حريّته المدنيّة بعد أن فقد حريّته الفطريّة. العقد الاجتماعي الذي أراده روسّو أشبه بطاولة القمار، تخلّ عن حريّتك الطبيعيّة في إنشاء الدولة، قد تربح حريّة مدنيّة، وقد تخسرها. تنبّه روسّو لهذه الإشكاليّة، وتبدّت له ثغرات صفقته التي عقدها، لكنّه لم يستطع تقديم حل مرضٍ وحاسم لأولئك الذين اختلفوا مع الإرادة العامّة.

مكمن ضعف مشروع روسّو هو ليس الوصول إلى ضرورة الدولة، فهذا أصبح من البديهيّات الاجتماعيّة، المشكلة هي أنّه بدأه بشكل رومانسي لمّا افترض أنّ الحرية صفة فطريّة في الإنسان، ثم تابع طريقه على هذا الأساس. روسّو في منهجه هذا كمن يبدأ بالبناء من الطابق الأوّل متجاهلًا الأساسات، فهذا الافتراض الذي اعتبره بداية نهجه يكون في العادة نتيجةً ونهاية طريق عند الفلاسفة الآخرين. أضعفت هذه الفرضيّة المتسرّعة منهج روسّو، وجعلته يدور في فلك نتائج متناقضة، متنازلًا شيئًا فشيئًا عن الحريّة، ومحاولًا تقديم عدّة أسماء لها، لم يستطع في النهاية أن يثبت أيّ واحدة منها!

إذا تجاوزنا المفهوم النظري للعقد الاجتماعي إلى المفهوم العملي، وسألنا أنفسنا سؤالًا: هل هناك دولة معاصرة تطبّق مفهوم الحريّة المدنيّة؟ أمريكا هي سيّدة الحريّات الفرديّة المعاصرة، تستخدم «تمثال الحريّة» رمزًا لها حين تخاطب الآخرين، وفي لغتها ضميرُ المتكلّم يكتب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالأحرف الكبيرة «I». في انتخابات الرئاسة الأمريكية يترشّح حزبان فقط، يعملان بالفكر الرأسمالي نفسه، ولكن يختلفان قليلًا في طرق تطبيقه. ماذا لو أراد المواطن الأمريكي الحر المنتشي بفرديّته أن يُحكَم بفكرٍ اشتراكي، من أين يجلب ذلك المرشَّح الذي يلبّي له أمنيته تلك! هل تطبّق الولايات المتّحدة الحريّة السياسيّة فعلًا؟ أم تستخدمها؟

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سؤالٌ وإجابة

«هل من الممكن إثبات وجود إرادة حرّة للإنسان استنادًا على وعيه بذاته؟» طرحت الجمعيّة الملكيّة النرويجيّة هذا السؤال في عام 1839م، وعرضت جائزة لأفضل إجابة مُقدَّمة. أحد المشاركين كان أستاذًا جامعيًا سابقًا في جامعة برلين، عُرِفَ بشخصيّته الغامضة، وفلسفته التشاؤميّة، وحياته المثيرة للجدل. انتحر أبوه، وأطلقت بعده أمُّه عنانَ تحرّرها، ما تسبّب في خلاف عميق أبدي بينهما. أثّر هذا الخلاف على فلسفته وحياته الشخصيّة، اعتبر أنّ الدافع الجنسي هو أهم دافع تقوم عليه حياة الكائنات، التي لم تكن من وجهة نظره سوى شر مطلق. نبذ المرأة، وعاش أعزبَ طوال عمره. ربح الفيلسوف المثير للجدل الجائزة، ونشر إجابته في كتابه «حول حريّة الإرادة». بعد عامين، نشرها مرّة أخرى كجزء من كتاب «المشكلتان الأساسيّتان للأخلاق». رجلنا هذا هو الفيلسوف الألماني آرثر -أو أرتور- شوبنهاور.

اتّسمت إجابة شوبنهاور عن السؤال بطابع أكاديمي بحت، يليق بأستاذ جامعي صارم مثله. بدأها بشرح المفاهيم المضمَّنة في السؤال: الوعي بالذات، والحريّة. فماذا قال؟ الوعي بالذات هو معرفة الإنسان برغباته، وعواطفه. إن جاز التعبير، فهو معرفة الإنسان بنفسه. وهو النقيض لمعرفة الإنسان «بالأشياء الأخرى». رغم وجود علاقة بين المعرفتين -باعتبار أنّ معرفتنا بالأشياء الأخرى تنبع من داخلنا- إلّا أنّه من الأولى اعتبار معرفة الأشياء معرفةً موضوعيّة، لا وعيًا ذاتيًا. الأشياء موجودة في الواقع كما هي، ويقوم الإنسان بالتعرّف عليها. عند الحديث عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوعي بالذات، ينبغي فصل البواعث الأخلاقية وضروراتها عنه، وإلصاقها بالوعي بالأشياء الأخرى؛ لأنّها ببساطة تنتج عن تلك الأشياء الأخرى! كما أنّ القدرة على تحديد ماهيّة وحدود هذه البواعث قاصرة، ما يجعلها محل خلاف نسبي كبير. تضمين مفهوم الأخلاق في الوعي بالذات يجلب إجابة خاطئة للسؤال المطروح؛ لأنّه سيخلق علاقة مغلوطة بين المتغيّرين، سيوجّه الإجابة نحو «أنت تستطيع لأنّه يتوجّب عليك أخلاقيًا.»

وما هي الحريّة؟ الحريّة -كما يتصوّرها الكثير من مفكري العصر- هي جسديّة، بمعنى عدم وجود عقبات ماديّة أمام الأفعال. إذا اكتفينا بهذا المفهوم للحريّة، ستكون إجابة السؤال: نعم، من الممكن تصوّر الحريّة من خلال الوعي بالذات، فالإنسان يعرف حدود جسده، ويستطيع تحريكه في الفراغ كما يشاء. المعضلة أنّه لا يمكن قسر معنى الحريّة على ماديّة الحركة؛ لأنّنا يجب أن نعي مصدر الرغبة في هذه الحركة. ماذا تعني «حريّة الصحافة» مثلًا إذا حصرنا تفكيرنا في الحريّة المادية! لذلك علينا البحث عن مفهوم أوسع للحريّة. صاغ شوبنهاور مفهومًا جديدًا للحريّة، شمل نوعين آخرين منها بالإضافة إلى الجسديّة: الأولى من الممكن أن ندعوها المفترَضة، والثانية هي الفكريّة.

لكل سلوك وظيفة ما، سبب يدفع الشخص للقيام به، لا نتخيّل أن يقوم أحدهم بأي فعل دون ضرورة، حتّى لو كانت مجرّد جذب انتباه الآخرين. الوعي بالضرورة شيء آخر، يندرج تحت الحريّة الفكريّة كما سنرى. بما أنّ كل ما يحدث في العالم يحدث لضرورة، فإنّ إنكارها يعيد المرء إلى فكرة العشوائيّة المطلقة التي يصعب التفكير فيها وتقبّلها، إنّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العالم ليس عشوائيًا لا معنى له. تستند الضرورة إلى أساس منطقي، أي إنّها نتيجة تتبع سببًا: منطقيًا، أو رياضيًا، أو فيزيائيًا. التصرّف، اعتباطيًا بلا سبب طبيعي دون وجود ضرورةٍ ما، هو الحريّة المفترَضة، وهو ما يحدث بشكل عرضي أو عشوائي أو مشروط، ولا يحدث بشكل طبيعي عادةً. توقُّع أن يفعل أيُّ شخص شيئًا لا تفرضه أيُّ ضرورة على الإطلاق هو نفس توقُّع أن تتحرّك قطعة من الخشب دون أن يتم سحبها بخيط! وهذا الذي يقبله مَن ينكرون الحتميّة: عزوَ الأفعال إلى الصدفة. ارتباط الحريّة بالضرورة يجعلها وهمًا ناتجًا عن عدم إدراكنا أنّ دوافعنا لها قوانين سببيّة خارجيّة. وهذا يكفي لأن نقول إنّ الإنسان ليس حرًّا في ظل وجود الضرورات التي توجّه أفعاله.

ضرب شوبنهاور مثالًا لرجل يقول لنفسه أثناء وقوفه في الشارع: «إنّها السادسة مساءً، انتهى يوم العمل. الآن يمكنني الذهاب في نزهة على الأقدام، أو يمكنني الذهاب إلى النادي، يمكنني أيضًا تسلّق البرج لرؤية غروب الشمس، يمكنني الذهاب إلى المسرح، يمكنني زيارة هذا الصديق أو ذاك، في الواقع، يمكنني أيضًا الركض من البوابة، إلى العالم الواسع، ولا أعود أبدًا. كل هذا متروك لي تمامًا، وفي هذا لديَّ الحريّة الكاملة. لكن ما زلت لن أفعل أيًا من هذه الأشياء الآن، ولكن بإرادة حرّة سأعود إلى المنزل لزوجتي». في الواقع، اختار هذا الرجل ما فرضته عليه الضرورة، وهو أن يذهب إلى البيت، ويترك الخيارات الأخرى المتاحة أمامه. لم يجد غاية من الركض أو الذهاب إلى النادي، ولو وجد وَفَعَل، لكانت الضرورة هي من وجّهته. فهل نعتبر أنّه اختار فعلًا بكامل إرادته!

العقل الواعي يدرك دوافع وأسباب الفعل. من المحتمل أن يكون للفعل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الواحد أكثر من دافع، وليس بالضرورة أن توجّه الفعل نحو الاتجاه نفسه، ربّما إلى أكثر من خيار، يتعارض بعضها، فيضطر الإنسان إلى الموازنة بينها، يختار دافعًا على حساب آخر. ضرب شوبنهاور مثالًا على تعارض الدوافع، فقال: يمكن للإنسان -إذا أراد- أن يعطي كل ماله للفقراء، ويصبح فقيرًا، لكنّه لا يستطيع أن يفعل ذلك؛ لأنّ الدوافع المتعارضة مع هذه الإرادة - مثل حب المال والرغبة في امتلاكه - أقوى منها. الحريّة الفكريّة هي أن نعي هذه الدوافع. وهي مشروطة بمعرفة واضحة بالدوافع المجرّدة أو المحدّدة للفعل. وهو ما يحدث عندما لا يتأثّر العقل بالعاطفة الشديدة، أو التحفيز الخارجي. نقص المعرفة لدى الإنسان يؤدّي إلى تأثير أكبر لهذه المؤثّرات عليه. لذلك فهي حريّة نسبيّة، ليس كل البشر يعرفون دوافعهم جيدًا، أغلب الناس يتصرّفون بشكل فطري أو معتاد. كل إنسان لديه طريقة فريدة للتفاعل مع الدوافع، قد يظن أحدهم أنّ طريقة تعامله مع الدوافع هي شكل من أشكال الحريّة، في الحقيقة هذا يُسمّى «نمط شخصيّة»، وليس له علاقة بالحريّة.

الإجابة النهائيّة على سؤال الجمعيّة الملكيّة هي «لا». البشر ليس لديهم إرادة حرّة على الإطلاق في ظل الظواهر الكبرى المحيطة بهم. هم محدّدون تمامًا من خلال الطريقة التي تتفاعل بها أجسادهم مع المحفّزات الخارجيّة والتغييرات الداخليّة -الميكانيكيّة والفيزيائيّة والكيميائيّة - والتي تتفاعل بها شخصيّاتهم مع الدوافع. هناك ضرورة أكبر منهم يتصرّفون بسببها. ولا ينبغي أن نتجاهل معرفة الإنسان بهذه الضرورة، كم منّا يعلم تحديدًا لماذا يتصرّف بشكلٍ معيّن! (48)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(48) انظر كتاب حول حريّة الإرادة، لآرثر شوبنهاور.

برع شوبنهاور في فصله بين أنواع الحريّة، والإسهاب في بيانها، لكنّي أراه لم يوفّق باعتبار أنّ الإنسان قد ينال قدرًا كبيرًا من الحرية الجسديّة. إذا سألنا سؤالًا بسيطًا بهذا الصدد، وهو: ما هي حدود قدرات الإنسان الحركيّة؟ لا يستطيع الإنسان من الحركة إلّا ما تسنّى له من مجال معيّن منها، لا يقدر على الطيران مثلًا، حتى لو قرّره! وهذا نوع من أنواع الحتميّة. الإنسان حر فيزيائيًا ضمن الحدود التي منحه الله إياها في الحركة. حتّى القدرات الحركيّة الممنوحة للإنسان، لا يستعرضها كلّها أمامه حين يقرر الانتقال من حيّز مكاني إلى آخر، بل نجده يمشي مباشرة، باعتبار المشي أكثر وسيلة فعّالة للحركة، وهي الشكل الاجتماعي المقبول. إذا شاء الإنسان أن يذهب للتسوق حبوًا، فهل يستطيع إجراء قرار كهذا؟ الإجابة لا، رغم استطاعته الحركيّة على الحبو. والأسباب هنا كثيرة، أوّلها اجتماعي، متعلّق بهويّة الإنسان، وارتباطها ببني جنسه داخل مجتمعه. حتّى في أكثر المجتمعات فرديّة لا نتصوّر إنسانًا يتحرّك حبوًا. والسبب الآخر هو فعاليّة المشي مقارنة بالوسائل الأخرى، باعتباره الوسيلة التي تستهلك أقل جهد عضلي. فالإنسان هنا اختار مجبرًا المشي كوسيلة حركة، اختيارًا فرضته الطبيعة والخصائص الحيويّة، والمجتمع. فما مدى حريّة الإنسان الحركيّة إذا وضعنا في اعتبارنا كل هذه المتغيّرات؟

مرّ على سؤال الجمعيّة الملكيّة النرويجيّة أكثر من 170 عامًا وما زال يتراءى إليّ في أوقات جدّي وهزلي لِما فيه ربط عبقري بين متغيّرين مجلوبين من أعماق النفس البشريّة، لا يقدر على استحضارهما إلّا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ماكرّ ألِف الطبيعة الإنسانيّة، وحلّل مفاصلها كخبير. ما علاقة الوعي بالذات بالحريّة؟ إنّ الإنسان المعاصر موهوم بذاته، يظن أنه يعرف كل شيء، يظهر هذا جليًا عند إبدائه رأيه في أيّ موضوع، يتحدّث كباحث، ويعارض كمختص، حتى في الأمور الدقيقة الشائكة. لزوم الصمت عنده شكلٌ من أشكال الجهل! وعلّةُ تنافي حبّ الظهور وربحَ النقاش! قيل قديمًا: «تحدّثك في حضور مَن هو أعلم منك علامةٌ على جهلك». إذا كان فلاسفة الإغريق ربطوا الحريّة بالمعرفة، فحريّ بنا أن نربطها اليوم بالاختصاص، أو بوعيٍ حقيقي بالذات العارفة!

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تذكرة إلى فيينا

لطالما قصد الشباب الطموح العاصمة، توجّهوا إليها من قراهم ومدنهم البسيطة بحثًا عن مستقبل أفضل، لِما سمعوا عمّا فيها من أرقى الجامعات المحليّة، وأضخم الشركات، والكثير من فرص العمل. كيف لا؟ وهي التي أتيحت لها أسباب المدنيّة، وشروط التحضّر. هكذا يظن كل مَن لا يعرف العاصمة. على متن القطار المتّجه إلى فيينا، جلس رودلف شتاينر، الشاب ذو الثمانية عشر عامًا. غادر بلدته الصغيرة وينر نيوستاد عام 1879م ليلتحق بمعهد فيينّا للتكنولوجيا. شعور الغربة يبدأ حين ترفع يدك ملوّحًا للأهل بالوداع، ومنذ أن تضع قدمك في القطار - في لحظة كالصدمة - تعرف أنّك أصبحت وحيدًا. يتحرّك القطار وتتحرّك معه ثنايا الذاكرة، وأنت جالس تفتش عن لحظات، وضحكات، ومشاكسات، وصور، وأصوات يبدو أنّك افتقدتَها الآن. لم أجلس بجانب شتاينر في رحلته تلك، ولكنّي أعلم أنّه كان يبكي! حزنٌ على الفراق ومستقبل غامض، ومن شأن الغموض أن يعمّق الحزن أضعافًا؛ لأنّه يضفي إليه القلق، ويرمي أمام العقل أسئلةً لا تنتهي، كلّها بلا إجابة. الوقت يمضي على الوحيد بطيئًا، كأنّ القدر يحيله إلى ساعة مرئيّة أمامه، تتابع العيون الذاهلة كل حركةٍ فيها. والناس كلّها تتحوّل إلى ظلال، أو نسخ مكررة من اللّا شيء.

خلال سنين الدراسة، استمرّت رحلات الفتى بين جامعته وقريته. رحل الغموض، وأُجيبت الأسئلة القديمة، لكنّ الأسئلة شهوة، كلّما ظننت أنّك أشبعتها، تدرك لاحقًا أنّها تزداد، حتّى تخرج عن سيطرتك. وأسئلة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الغريب لها طابع استثنائي، تبدأ خارجيّة، تستعلم عن الأماكن والآليات والأنماط والأشخاص، ثم تصبح داخليّة، الغريب يسأل نفسه: مَن أنا؟ وحينها يكتشف أنّ حزن الفراق وغموض المستقبل الذَيْنِ عايشهما في بداية رحلته كانا هيّنَينِ مقارنةً بما هو قادم! يأتي شعور جديد ليسود هذه المرحلة من أزمة الهويّة، وهو الفضول. الناس التي كانت أشباحًا لا معنى لها تصبح ظواهرَ تستحق التأمّل. كميّةٌ كبيرة من التفاصيل، وأنماطٌ سلوكيّة تستدعي المقارنة. فجأةً، تجد نفسك تراقب الأيدي، والأرجل، والوجوه، والعيون، ونبرات الأصوات، والثياب، والمسافات. أسوأ ما في تلك المرحلة أنّ حزن الغريب على وداع الماضي يمسي قهرًا على ما ضاع منه.

بعد ثلاث سنوات من الرحلات الروتينيّة، صعد شتاينر القطار المتّجه نحو فيينّا عائدًا من إجازته. مدفوعةً بالفضول راقبت عيونُه رجلًا على مشارف الخمسين يجلس في إحدى زوايا القطار. لعلّه لفت نظره لأنّه قروي مثله، أو قد يكون رآه سابقًا في فيينّا. على أي حال، فالفضول تجاه شخص هو ممّا يكبر على العقل أن يفسرّه، هالةٌ لا تعرف اللغة شرحها، فنكتفي بقول هالة! تعرّف شتاينر على الرجل الغامض، كان جامع أعشاب يُدعى فيلكس كوغوتزكي. الحديث عن مملكة النباتات لا يستهوي أغلب الناس، رجل بخبرة كوغوتزكي يعلم ذلك جيّدًا. كيف إذًا شد انتباه شتاينر، وجعله يصادقه في رحلة قصيرة؟ عن ماذا حدّثه؟

قبل عشر سنوات، حلم شتاينر الطفل بروح عمّته تطلب منه المساعدة، ولم تكن العائلة -التي تقطن قرية بعيدة- قد عرفت بعد أنّ عمّته ماتت بالفعل. كوغوتزكي مهتم بعالم الأرواح والميتافيزيقا، كل الناس تتكلّم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن أمور كهذه، الميدان واسع، ويتحمّل أي حديث، لكنّ كلام هذا الرجل أوحى بأنّه خبير مطّلع، لدرجةٍ أثارت انتباه شتاينر، ربّما فتح كلامه قُفلَ صندوق مغلق في ركنٍ ما من اللّا شعور عنده، يحتوي على تلك القضة المأساويّة القديمة. امتدّت علاقة الرجلين إلى فيينّا، وأصبحا صديقين مقرّبين. رافق شتاينر كوغوتزكي في رحلاته لجمع النباتات، روى أنّه كان يجمع كل أنواع النباتات، ويعرفها ويتكلّم عنها بشكل دقيق. وبالطبع لم يخلُ الكلام من الحديثِ عن الأرواح. (49)

(49) انظر مقال البحث عن فيلكس جامع الأعشاب، في مجلة النصل الذهبي، لإيميل بوك.

تابع الفتى نجاحاته الأكاديميّة والعمليّة. ورُشّح اسمه عام 1882م لجوزيف كورشنر، الذي كان يعمل على تحرير طبعة جديدة من أعمال غوته، فأسند إليه تحرير العلوم الطبيعيّة في تلك الطبعة. أحسن شتاينر استغلال الفرصة، على إثرها تمّت دعوته للعمل في فريق لجمع أرشيف غوته. خلال تلك الفترة كتب كتابين حول فلسفة غوته، ومقدمّات وتعليقات على أربعة مجلّدات علميّة له. كما جمع أعمال شوبنهاور الكاملة، وجان بول، وغيرهما. بقي في الأرشيف حتى 1897م، كتب خلالها أحد أشهر كتبه، فلسفة الحريّة، عام 1894م. عبر تلك السنين كلّها، ظلّت علاقة شتاينر بكوغوتزكي مستمرّة. (50)

(50) انظر كتاب قصّة حياتي، لرودلف شتاينر.

شكّل شتاينر حركته الروحانيّة، التي هدفت إلى تحرير الفرد من أي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سلطة خارجيّة. كان اسمها الأنثروبوسوفيا. سعى في حركته إلى إيضاح أكبر للمنهجيّة العلميّة لتشمل ظاهرة الروح البشريّة والتجارب الروحانيّة. وفكّر في تطوير أدوات علميّة جديدة لمراقبة الروحانيّات، وتقييمها، وفهمها، وتحليلها، كأيّ من العلوم الأخرى. كانت هذه الدعوة إلى البعد العلمي هي ما اختلف عن الباطنيّة التقليديّة، التي اعتبرها شتاينر عشوائيّة، وتعتمد فقط على المعرفة الحسّيّة. اتّسع انتشار الحركة، وانضم إليها عشرات الآلاف حول العالم، كما استحوذت على اهتمام عدّة مؤسسات بحثيّة وجامعات، لكنّ خطواتها نحو أهدافها ما تزال بطيئة.

«هل الإنسان حر روحيًا؟ أم خاضع لإرادة طبيعيّة حديديّة؟» افتتح شتاينر كتابه فلسفة الحريّة بهذا السؤال، وسعى في صفحاته إلى الإجابة عليه. اعتبر أنّه من السذاجة قول إنّ الإنسان حر لأنّه يستطيع - فقط - الاختيار بين خيارين، هذا المعنى قديم، وينبغي تجاوزه بالأخذ بالاعتبار سبب الفعل. الفعل الذي يقوم به صاحبه بشكل تلقائي، دون معرفة سببه، لا يمكن اعتباره فعلًا حرًا. ولكي نعرف أسباب أفعالنا، علينا أن نعي أفكارنا ومشاعرنا.

توجد داخل الإنسان رغبة فطريّة في المعرفة، تجعله يلاحظ الطبيعة، ويقف أمامها في الجهة المقابلة، يقارن، ويحلّل، ويسأل، ويسعى للإجابة، ويبحث عن تفسيرات. وسط هذه العاصفة الذهنيّة، يدرك أنّه كيان آخر مستقل عن الطبيعة نفسها. ولكنّ هذا الانقسام يحدث على مستوى الشعور، لا يؤثّر على العواطف، وتبقى فكرتنا أنّنا ننتمي لهذا العالم، وأنّنا جزء منه؛ موجودة. من أجل التغلّب على هذا الانقسام الشعوري علينا التقرّب من الطبيعة، بتحديد مظاهرها داخل ذواتنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحريّة نوعين بالنسبة إلى شتاينر: داخليّة وخارجيّة. الداخليّة هي حريّة الأفكار، والخارجيّة هي حريّة الفعل. إذا استطعنا أن نحقّق الاتّساق بين انطباعاتنا الحسّيّة التي ترى العالم الخارجي، وأفكارنا التي تمكّننا من الوصول إلى طبيعة العالم الداخليّة؛ عندها تتحقّق الحريّة الداخليّة. أمّا من أجل تحقيق الحريّة الخارجيّة، يجب أن تتّسق الأفعال مع التصوّر الأخلاقي عند الفرد. جانبا الحرية متكاملان ومكمّلان لبعضهما، ولا تتحقّق الحرية إلّا باتّحادهما. (51)

(51) انظر كتاب التفكير الحدسي كطريق روحي/ فلسفة الحريّة، لرودلف شتاينر.

الإنسان عند شتاينر يصل إلى الحريّة حين يستوفي شروطًا معيّنة. هذا ليس جديدًا في تاريخ الفلسفة، رأينا وسنرى أنّ كثيرين قالوا بهذا، رغم اختلاف الشروط التي وضعوها. شروط شتاينر نسبيّة جدًّا، وغير واضحة، هي أقرب للكلام الروحاني منه إلى الفلسفي. كيف نحدّد مظاهر الطبيعة في ذواتنا؟ كيف نعرف أنّنا اقتربنا من الطبيعة ذلك القرب اللازم لنتغلّب على انفصالنا الشعوري عنها؟ كلام فضفاض، يحتاج إلى مزيد من التحديد، وإلى آليات ممنهجة لقياسه، وإلّا سيبقى كلامًا جميلًا مناسبًا للشعارات والخطابات المحفّزة.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هل يدور الرجل حول السنجاب

«البيضة أم الدجاجة؟»

الزمان: نهاية القرن التاسع عشر.

المكان: جبل ما.

في زمن كانت فيه الطبيعة أهم وسيلة للتسلية، والتخييم نشاطًا اعتياديًا للترفيه عن النفس؛ خرجت مجموعة من الرجال، لتحط رحالها على أحد الجبال. نصبوا خيمتهم، وجلسوا، آثر أحدهم العزلة، تلك اللحظات التي يعرف قيمتها المفكّرون. لمّا عاد إلى جماعته، وجد نقاشًا دائرًا بينهم. يبدو هذا أمرًا طبيعيًا إذا أخذنا في حسباننا عاملي الزمان والمكان، الغريب هو محور النقاش: سنجاب! لاحظ الرجال أنّ السنجاب يستخدم الشجرة بذكاء شديد للهرب من رجل يلاحقه، فهو يفر بالسرعة نفسها التي يتحرك بها الرجل إلى الاتجاه المقابل عنه، ويبقي - طوال الوقت - على الشجرة بينهما، لدرجة أنّ الرجل بالكاد يلمحه يتحرّك! الملاحظة تولّد الأسئلة، خصوصًا حينما يمر الوقت ببطء. السؤال الذي شغل الجالسين حينها: هل نستطيع القول مرتاحين إنّ الرجل يدور حول السنجاب؟ وكما يختلف الناس على كل شيء، لم يُجمع الجالسون على إجابة واحدة. دارت عيون الوافد الجديد على ملامح الجالسين تستقرئ الإجابات، كانت وجوههم كشاخصات مكتوب عليها: نعم، لا، نعم، نعم، لا، نعم، لا، لا... حان الوقت ليقول ما عنده.

بدأ كلامه ببيان ضرورة تحديد المعنى الدقيق لكلمة يدور، ما معنى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يدور؟ الرجل يقابل السنجاب، وبينهما الشجرة، إذا كان الدوران يعني تحرُّك الرجل من شمال السنجاب إلى شرقه، ثم جنوبه، ثم غربه، أو بالعكس؛ فهو يفعل ذلك بالفعل، وعليه تكون الإجابة: يدور الرجل حول السنجاب. أمّا إذا قُصِد بالدوران اتّجاهُ الرجل من أمام السنجاب إلى يمينه، فخلفه، فيساره، تكون الإجابة: لا يدور الرجل حول السنجاب؛ لأنّه دائمًا أمامه، يقابل بطنه بطنه. رجلنا هذا، المهتم بالتحديد الدقيق لمعنى المصطلحات هو وليم جيمس، الفيلسوف وعالم النفس الأمريكي الشهير. هذه الطريقة التي استخدمها - محاولة معرفة المعنى العملي للمصطلحات - لم تكن إلّا المرحلة الأولى من البراغماتيّة، التي شرحها، ودعا إليها عند محاولة حل الخلافات، وخصوصًا الميتافيزيقيّة منها.

المرحلة الثانية من البراغماتيّة هي أن نتتبع النتائج العمليّة لأي مصطلح، ونصل إلى فائدة ما للبشر. إذا لم تكن هناك فروقات عمليّة ملموسة على أرض الواقع لمصطلحاتنا، فإنّ البدائل تعني نفس الشيء، وستكون خلافاتنا خاملة، لا معنىً لها، ولا فائدة مرجوّة منها. وعليه فالمعاني الميتافيزيقيّة صحيحة إذا كانت تحقّق فائدة ما، وتتماشى بشكل سلس مع الحقائق العلميّة الأخرى.

باستخدام هذا المنهج، كيف تحدّث جيمس عن الحريّة؟ الحريّة كلمة ميتافيزيقيّة، لا يمكن إثباتها علميًا. هي تعني الاستحداث، ويترتّب عليها -إذا كانت موجودة بالفعل- ألّا يعيد الماضي نفسه في المستقبل. خيارات الإنسان حين تكون حرّة تصبح مختلفة من حين لآخر. وهذا ما لا يحدث في الحقيقة، فالمستقبل نسخة قادمة مكرّرة من الماضي. الحريّة في الحقيقة وهم، ولكنّه مريح، يتعامل معها مَن يقرّون بوجودها كموضة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يجب اتّباعها، وكجزء غامض من كرامتهم. أمّا الذين ينكرونها، يقلّلون من شأن الإنسان أمام الكون الكبير.

لكنّنا نحتاج عمليًا إلى الحريّة. إذا كانت أفعالنا حتميّة، كيف نُشكّر أو نعاقب عليها، مَن يتحمل عواقب أفعالنا إذًا! أنصار الحرية كانوا محقّين حينما ربطوها بمعنًى أخلاقي، إنّهم بذلك قد تجاوزوا المصطلح نحو المعنى العملي. لا معنى لوجود الحريّة إلّا باعتبارها معتقد إغاثة مريح، كالمعتقدات الدينيّة، وجودها يساعدنا في الإيمان بمستقبل أفضل. العالم السيئ الذي نراه الآن من الممكن أن يصبح جيّدًا بأفعال الناس، حتى لو كان في الحقيقة لا يصبح أفضل، فالماضي - كما قلنا - روحه تحلّ في جسد المستقبل، فيبقى سيئًا! (52)

(52) انظر كتاب البراغماتيّة: اسم جديد لبعض طرق التفكير القديمة، لوليم جيمس، ص. 115 - 134.

بصرف النظر عن النتائج التي وصل إليها جيمس، فقد قام بعمل عظيم عند حديثه عن الحريّة، وهو ربطها بما هو نافع للبشريّة. ما معنى أن تكون الحريّة موجودة أو لا إذا لم يكن لذلك أيّ منافع إنسانيّة مرجوّة! وهذا ما أصبح مألوفًا عند الباحثين المعاصرين، نراهم في دراساتهم يستعرضون فوائد الدراسة، ويفتحون الآفاق لدراسات أخرى من علوم شتّى. وقد لفت جيمس النظر إلى نقطة مهمّة للغاية عند نقاش مسألة الحريّة -بل أي قضيّة شائكة أخرى- وهي إزالة المتعلّقات الجذّابة المرتبطة بها، نزْع الهالة عنها، والتعامل معها كمصطلح مجرّد، دون ربطها بالأخلاق، أو اعتبارها حقًّا مكتسبًا. عند وضع الحريّة على طاولة التداول،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يستدعي وهمُ الاستحقاق ملامحَ الغضب إلى وجوه الكثير من الناس، كأننا نناقش جزءًا لا يتجزأ من كيانهم، فتبدأ الاتهامات الجاهزة بالحضور. ما أحوجَ الإنسان المعاصر إلى مزيد من التواضع، وكثير مِن العلم المجرّد حتى يصبح جاهزًا للتعاطي مع قضايا كهذه!

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مجنون من ساكسونيا

كنتُ طفلًا، في ذلك السن الذي تكون الذاكرة فيه انتقائيّة، تخزّن ما يحلو لها من مشاهد كخيالات، دون أن نعلم لماذا تحتفظ بمواقف بعينها، وتهمل أخرى! عرض التلفاز فيلمًا مصريًا للفنان الأكثر شهرة، عادل إمام، اسمه الغول. وكأي طفل، لم أحفظ تفاصيل القصّة، نسيت حتّى الممثلين الآخرين، ما علق بذهني منه وقتها حكاية «قانون ساكسونيا». جاء على لسان البطل أنّ مقاطعة ساكسونيا في زمانٍ ما اعتبرت الموسيقار ظالًا، فإذا قُتِل يُحكَم على القاتل بوضعه في الشمس، وقطع رأس ظلّه! ظلّت لساكسونيا في ذهني بعدها صورة قاتمة. كبرت، وعرفت أسماء أبطال الفيلم كلّهم، فهمت لماذا كان عادل إمام -حين روى قصّة القانون لصلاح السعدني- ينزل سلّمًا في عتمة الليل. ولم أستغرب لمّا عرفت أنّ مجنونًا ما ولد وترعرع في ساكسونيا، لم يبدُ لي الرابط بين هذه البلدة والجنون غريبًا! وأنا لا أقصد هنا برونو ريتشارد هوبتمان (53)، فهو مجنون في حقل آخر غير الفلسفة. قصدتُ فريدريتش نيتشة.

(53) برونو هوبتمان أدين باختطاف وقتل ابن الطيار الأكثر شهرة في الولايات المتحدة، تشارلز ليندبيرغ، ذي العشرين شهرًا، عام 1932م. عُرِفَتْ محاكمته «بمحاكمة القرن».

كتب نيتشة في مقدّمة كتابه «نقيض المسيح»: «هذا الكتاب لقلّة فقط من الناس، وربّما لم يولد أحد من هؤلاء القلّة بعد، قد يكونوا (يكونون) أيضًا من أولئك الذين استطاعوا أن يفهموا زرادشتي؛ وكيف لي أن أخلط بيني وبين أولئك الذين تُهيّأ لهم منذ الآن آذان صاغية؟ بعد غد فقط

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هو زمني، فمن الناس من لا يولد إلّا بعد الممات.» (54) فما قصّة هذا الكتاب!

(54) انظر كتاب نقيض المسيح، لفريدريتش نيتشة، ص. 21.

كانت هذه المقدّمة عنيفة ومباشرة وفظّة، لأنّها إعلان حرب سيشنّها نيتشة على الديانة المسيحيّة؛ ومتغطرسة ونرجسيّة، لأنّه سيعرض بعدها مشروعه الفلسفي الذي اعتبره بديلًا مناسبًا للمسيحيّة، ونصّب فيه نفسه بديلًا للمسيح، على الطرف الآخر من كل تعاليمه، نقيضًا له. وهو أمرٌ جللٌ، يستوجب - لو درى نيتشة - الذم لا المديح! جوهر المسيحية الشفقة، بينما جوهر نقيضها القوة. يسمّيها نيتشة القوة، لكنّها في الحقيقة التفوّق، والغرور، واحتقار الضعيف، ومحاربة الإنسانيّة. حين انتقد نيتشة المسيحيّة، جاء بذكر أجمل ما فيها! لم أجد مرجعًا موثّقًا يذكر قانون ساكسونيا، ولكنّي أتأكّد من صحّته كلّما مرّرتُ على سطور خطّها نيتشة!

في فلسفة نيتشة، تدور كل المفاهيم حول القوّة، فالجيّد هو كل ما ينمّي الشعور بالقوّة، والسيّئ هو كل ما يجيء من الضعف، والسعادة هي الإحساس بتنامي القوّة. ولا اعتبار للأخلاق في فكره، يهزأ منها، ويظنّها مهربًا للضعفاء يدارون بها عجزهم، كلمة سحريّة يذكرونها حين يتسلّل الهوان إلى نفوسهم. فلاسفة جاؤوا على ذكرها ككانط وهيجل مذمومين بالنسبة إليه. كل مجتمع لا يسعى الأفراد فيه إلى التفوّق، وسحق الخصوم، هو مجتمع بائس. لا ينبغي أن يجنح المجتمع المثالي - عند نيتشة - إلى السلم، بل عليه أن يكون في حرب مستمرّة. الإنسان القوي في مجتمع نيتشة هو الأعلى قيمة، والأجدر بالحياة، والأفضل للمستقبل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العجيب أنّ نيتشة دعا إلى العلم في مناسبات كثيرة! قال منتقدًا ذوي الأخلاق والقساوسة: «يمسك المثالي مثله مثل القس، بكل المفاهيم الكبرى (ولا يمسك بها بيده فقط) ويسخرها باحتقار محسنٍ لمحاربة (العقل) و(الحواس) و(المجد) و(الرفاه) و(العلم).» (55) وسخر من تراجع العلم في عصر الديانة: «ما للقس والعلم إذًا؟ إنّه في منزلة أرقى من أن يولّي هذا الأمر اهتمامًا! القس هو الذي ظل يسود إلى حد الآن! وهو الذي كان يحدّد مفهوم (الحقيقة) و(الباطل).» (56) بئسًا لمجتمع كالذي دعا إليه نيتشة. كيف يستقر المجتمع ويتطوّر إذا كان يرتدي في كل أحواله لباس الحرب! متى اجتمع الحرب والعلم معًا!

(55) انظر كتاب نقيض المسيح، لفريدريتش نيتشة، ص. 33.

(56) انظر كتاب نقيض المسيح، لفريدريتش نيتشة، ص. 39.

المجتمع المسيحي المؤمن -الذي حاربه نيتشة - يضع محاذيرَ على غرائز الإنسان، يتّسم بالشفقة، والإنسانيّة، والأحاسيس الراقية، والفضيلة. من وجهة نظر النقيض الجديد، المسيحيّة انحازت للإنسان الضعيف الفاشل، وقتلت القوي، ودفنته مع غرائزه، بعد أن صوّرته كريهًا مرفوضًا، واستنبطت من غرائزه الطبيعيّة مفهوم الشر. جعلت الإنسان يبجّل ما يضرّه بأسماء مقدّسة وهميّة. وفيما قاله في هذا الصدد: «لا الأخلاق ولا الدين يلامسان نقطة واحدة من الواقع في المسيحيّة. لا شيء سوى حشد من العلل الوهميّة (الله، النفس، الذات، الروح، الإرادة الحرّة، أو حتّى اللّا حرّة)؛ حشد من النتائج الوهميّة (خطيئة، خلاص، رحمة، عقاب، غفران، خطايا)؛ علاقات بين كائنات خياليّة (الله، أرواح،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنفس)؛ علوم طبيعيّة موهومة (مركزية بشريّة، غياب كلّي لمفهوم العلّة الطبيعيّة)؛ بسيكولوجيا وهميّة (كمّ من سوء الفهم الذاتي، تأويلات لأحاسيس عامّة مريحة أو كريهة، مثل حالة العصب الوَدّي السمتاوي) بواسطة لغة الرموز الخاصّة بالحساسيّة الدينيّة المفرطة (الندم، تأنيب الضمير، غواية الشيطان، الاقتراب من الله)؛ ثيولوجيا وهميّة (ملكوت الله، يوم الحساب، الحياة الخالدة.)» (57) رأى نيتشة أنّ الشفقة التي قامت عليها المسيحيّة تمنع التطوّر والانتقاء، وتبقي على الضعفاء والفشلة، لتجعل الحياة كئيبة ومريبة. أراد نيتشة لمجتمعه أن يتحلّى بأخلاق السادة، في الوقت الذي كانت أخلاق المسيحيّين أخلاق العبيد! لذلك ينبغي التخلّص من المسيحيّة، ورموزها الماضية والحاضرة، وحقائقها الوهميّة! الإنسان النقيض ليس إلّا حيوانًا ذكيًا ماكرًا، غير مرتبط بالألوهيّة، ولا متفوّق على الحيوانات كملكٍ متوّج عليها، وليس منحرفًا عن غرائزه بشكل فاضح خطير.

(57) انظر كتاب نقيض المسيح، لفريدريتش نيتشة، ص. 43.

بهذا التصوّر، ما هي الحقيقة التي أرادها نيتشة في مجتمعه المتوهَّم إذًا؟ الحقيقة بمعناها المجرّد هي ببساطة عكس كل ما تروّج له المسيحية! كل ما تثبته المسيحية ينفيه نيتشة، وكل ما تمنعه المسيحية يسمح به نيتشة. المسيحيّة وهبت الإنسان حريّة الإرادة، واعتمادًا على القاعدة الجديدة، نيتشة أسقطها! وأوجد لها تعريفًا جديدًا: «نوع من ردّة فعل فرديّة ضروريّة ناجمة عن كم من المثيرات المتناقضة في جزء منها، والمتوافقة في جزء آخر.» (58) تعريف هلامي لزج، غير مفهوم أبدًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حتى لقلّة من الناس، رغم أنّ «بعد غدٍ» قد جاء فعلًا!

(58) انظر كتاب نقيض المسيح، لفريدريتش نيتشة، ص. 42.

نفى نيتشة وجود الإرادة الحرّة ليس لِسببٍ إلّا لأنّ المسيحيّة دعت إليها! استنتاج شخصي عاطفي أذكته العداوة. ما لنا نحن وخصومة نيتشة مع المسيحيّة! ما ذنب الفلسفة المسكينة أن يلصق بها استنتاج ساذج كهذا، والكلام هنا ليس عن النتيجة كخلاصة، إنّما عن طريقة استنباطها. هذا النقيض -الذي أخذ على عاتقه تقييم الفلاسفة، فمدح وذم فيهم- يقدّم نتيجة لا فلسفيّة ولا علميّة حول الحريّة! في حين تنأى الأكاديميا بنفسها عن المدح والذم كتقييم محايد. كيف استقام الأمر لنيتشة بأن يؤمن بأنّ الإنسان ليس حرًّا، في حين يدعوه لأن (يختار) أن يكون قويًّا! استنتاجات نيتشة -التي صاغها بلغة أدبيّة شيّقة - لا تصلح كاستنتاجات علميّة، حريٌّ بها أن تُسمّى «قصيدة هجاء حطينيّة»!

يظن الناس أنّ بعض المجانين الذين جاء التاريخ بذكرهم سمّوا كذلك مجازًا، في الحقيقة بعضهم مجنون فعلًا! عانى نيتشة من مشاكل صحيّة طوال عمره، في منتصف الأربعينيّات من عمره استقال من الجامعة بسبب ضعف نظره، ومعاناته من نوبات الصداع المتكرّرة. ثم طاردته مشاكل النوم، وحاول أن يحلّها بالأفيون. شُخّصت إصابته لاحقًا بالمرض الجنسي السفلس. وأصيب بالوهام عام 1888م، العام نفسه الذي كتب فيه نقيض المسيح. في السنة التالية أصابه انهيار عصبي، وأرسل إلى مستشفى الأمراض النفسيّة. (59) ربّما أصيب بالاضطراب ثنائي القطب، أو الذهان، أو الخرف الوعائي. في عام 1897م كان طريح الفراش،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فاقدًا الكلام والحركة في بيت أخته إليزابيث. احتاج نيتشة إلى الرعاية والشفقة التي حاربها طوال عمره. أمسى إنسانًا ضعيفًا، لا يليق به إلّا الطرد من مجتمعه الذي بناه، ونصّب نفسه أقوى أقويائه!

(59) انظر كتاب نيتشة، لعبد الرحمن بدوي، ص. 96-116.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رسالة إلى سارتر

محافظة مطروح

13 يوليو/ تموز 2021

عزيزي سارتر

بعد التحيّة، والشكر على جهودك الفلسفيّة الجمّة، خصوصًا منزعك الإنساني المسمَّى «الوجوديّة»؛ أود أن أستفسر منك عن بعض المسائل التي تشغلني بخصوصه. رغم علمي المسبق بأنّ هذا يخالف «الوقائعيّة» التي أشرت إليها، فأنت غير موجود كي تجيب؛ إلّا أنّ حرّيّتي الإنسانيّة، وهويّتي التي صنعتها بنفسي تدفعني للكتابة والاستفسار، فأرجو أن تتقبّلني كما أردتُ لذاتي أن تكون. أمّا المسائل -موضوع الرسالة- فهي كالآتي:

أوّلًا: عند نقدك لمذاهب ديكارت وليبنتز، حاولت أن تشرح مفهومهم عن وجود الإنسان، وأسبقيّة جوهر الإله، فضربت مثالًا بالحِرفيّ الذي يصنع قاطعة الورق، لا شك أنّ لديه مفهومًا مسبقًا عن هذه القاطعة، وتقنية للصنع تتماشى مع هذا المفهوم، وهدف يصنعها من أجله، ثم شبّهت هذا الحرفي بالإله، وهذه القاطعة بالإنسان. لم يرق لك هذا المذهب، أقمت أنموذجك -الذي يحلو لك أن تسمّيه منزعًا- الوجودي على قاعدة «الوجود يسبق الماهيّة» (60) بالنسبة إليك، الإله غير موجود، يوجد الإنسان أولًا، ثم ينبثق في العالم. إنسان غير قابل للتعريف، ليست له طبيعة ما، يُنشئ نفسه كما يريد. فمِن أين لك هذا اليقين الميتافيزيقي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي بنيت عليه مشروعك؟ هل تستطيع أن تثبت ذلك بأي طريقة كانت؟ لقد صفع كوبرنيكوس وغاليليو وداروين الإنسان حين سلبوا منه مركزيّته الكونيّة، ألا ترى أنك بافتراضك الرومانسي هذا أعدتنا خطوات إلى الوراء على طريق العلم التجريبي!

(60) انظر كتاب الوجوديّة منزع إنساني، لجان بول سارتر، ص. 27 - 28.

ثانيًا: مضيت في مشروعك الوجودي قائلًا إنّ «الإنسان محكوم عليه بالحريّة»، ثم شرحت سبب استخدامك لكلمة محكوم: «محكوم عليه لأنّه ليس هو من خلق نفسه، في حين أنّه مع ذلك يكون حرًّا، لأنّه بمجرّد أن يُلقَى به في العالم يكون مسؤولًا عن كل ما يفعل.» (61) إنّك تتحدّث هنا عن فاعل يخلق الإنسان ويلقي به في العالم، جوهر يسبق الإنسان، رغم ذلك فهو ليس الإله، وليس أي جوهر! فهل لك أن توضّح هذا؟ في الحقيقة، عليك أن توضح الافتراضَين الذَين انطلقت منهما، فهما - بوضعهما الحالي- يليقان بمُغنٍّ عاطفي، أو سياسي يستقطب مشاعر الناس، وليس بفيلسوف صاحب مشروع!

(61) انظر كتاب الوجوديّة منزع إنساني، لجان بول سارتر، ص. 43.

ثالثًا: أعطيت هذا الإنسان الحريّة المطلقة لإيجاد معنى لحياته، وعيشها بالطريقة التي تناسبه هو وحده. منحته حق الأصالة، أن يتصرّف باتّساق مع ذاته دون إملاءات خارجية. حاربت وصوله لليأس المفضي إلى العدميّة. هذا طرح نبيل بلا شك، ولكن النبل وحده لا يكفي لإتمام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المشاريع، لا بد من قليل من الواقعيّة. إكرامًا لهذا الرقي الإنساني الذي أبديته، سأمر على هذه النقطة خفيفًا. لن أسألك هنا عن حقوق الجوهر الذي جاء بالإنسان إلى العالم، ولا عن القيود التي وضعها على هذا الإنسان المخلوق، والتي من شأنها أن تقيّد هذه الحريّة؛ لأنك ما زلت تتنصّل من إقرار وجود هذا الجوهر!

رابعًا: أشرت إلى أنّ الإنسان «المحكوم عليه بالحريّة» لمّا أصبح حرًّا بشكل مطلق أُلقيَ على كاهله عبء العالم. أصبح مسؤولًا عن نفسه، وعمّا يفعل، فلا يحق له لوم أي طرف على مصيره، أو مجرّد الشكوى من حاله التي آل إليها؛ لأنّ أي وضع يكون عليه هو ببساطة صنيعة قراراته المتراكمة الحرّة. ليس هناك ما هو عرضي، إذا دُعِيَ الإنسان للحرب، يستطيع أن ينتحر أو أن يهرب من الخدمة العسكريّة، فإذا لم يفعل فقد اختار بنفسه الحرب (62)، أنت قلت هذا. حسنًا، عزيزي سارتر، إذا مرض الإنسان، هل يستطيع أن يختار الصحّة؟ أراك انتقائيًا في اختيارك للأمثلة، تطوّعها كما يشاء منزعك، فتختار ما يناسبه، وتغض الطرف عمّا لا يتماشى معه. رَبْط الحريّة بالمسؤوليّة يبدو أمرًا منطقيًا، وعلميًا، وعمليًا أيضًا، المجرم حين يقف أمام القاضي، يُحكَم عليه بما اقترفه. أهنئك على هذا الطرح المنهجي، سأحتفظ بنقدي له لنفسي، لن أطلب منك الإجابة عمّا أحسست به نحوه، شعوري أنّه ليس إلا مراوغة تتخلّص بها من الحتميّة هو شأن خاص بي، وأنا - بكل تواضع - لا أقدّم نفسي عالمًا بالنوايا وخبايا النفوس؛ لذلك أعفيك هنا من التعليق.

(62) انظر كتاب الوجود والعدم، لجان بول سارتر، ص. 874.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقبّل تحيّاتي العطرة

مهنّد محمّد عميرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صفعة من يد الماء

اعتاد الإنسان حياة اليابسة، وطوّر قدراته منذ الزمان الغابر لتطويعها، حتّى تسنّى له عيش يومه، والتخطيط لمستقبله. هذا البائس هيّأ لنفسه ركنًا ضيّقًا من العالم، ثم ظنّ نفسه سيّد الطبيعة الأوّل. كوّن مفاهيم مغلوطة عن إمكانيّاته، ضخّم قدراته، وملأها بالوهم. ماذا لو استأنس البحر بعد طول يابسة؟ كما فعل دانيال دينيت! لا شيء يجعلك ضعيفًا كما يفعل البحر، يذكّرك مع كل موجة بقوانين الفيزياء، كأنّه يقول لك ساخرًا: ستميل كما أشاءُ لك أن تميل، عليك أن تراعي قوانيني لكيلا تنقلب، وربّما أبتلعك بعدها أيها التعِس! البحر يستهزئ بقدراتك، يلقي أمامك من الكائنات العظيمة ما لا عدّ له ولا حصر، لعلّك تتواضع قليلًا، وتراجع تلك القناعة المضحكة التي تحكي مركزيّتك، لكنّه استحقاق منحته لنفسك، نكتة أعجبتك فصدّقتها. ومَن ذا الذي يتخلّى عن امتيازاته بتلك السهولة!

دينيت فيلسوف مادّي، اعتبر الإنسان آلةً مكوّنةً من ملايين الروبوتات - الخلايا - التي لا عقل لها، جاءتْ من بويضة، وحيوان منوي، وتريليونات من البكتيريا. تحكم الخلايا قوانين الفيزياء، وذلك يشمل العقل. لا فيزياء أخرى للعقل! صوّر القدماء وجود الروح، التي تنطبع على الشخصيّة، فتساعد في اتّخاذ القرار، لم تثبت البيولوجيا هذه الروح! هذه الفروقات التي نراها في أنماط الشخصيّة هي ناتج الخبرة، والعمر، منتج من منتجات الحياة فقط. الفرق بين متحدّث الفرنسيّة والصينيّة هو في الطريقة التي درّبنا عليها الخلايا، وعلى ذلك نقيس كل الفروقات بين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البشر. عبر السنين، تطوّر الإنسان التطوُّر الداروينيّ، تغيّرت خلاياه للأفضل، وبتحسّنها تحسّنت المعرفة، والشعور، ثمّ تطورت اللغة والهويّة. وبفضل قدرة الإنسان العالية على المعرفة، تفوّق على الكائنات الأخرى. المعرفة قوّة وسيادة، والقوّة مسؤوليّة، أصبح الإنسان المعاصر حاميّ الكوكب من الأخطار، هو للأرض كالجهاز العصبي. هذه القدرات جعلت الإنسان حرًّا قادرًا على الاختيار، لم يعد آلة موجّهة بشكل مطلق، لكنّه ما زال الابن البار للطبيعة، وحريّته تلك مصانة، لكن بما تسمح به القيود الطبيعيّة. فيزياء الإنسان الحر خاضعة لفيزياء الطبيعة. (63)

(63) انظر كتاب الحريّة تتطوّر، لدانيال دينيت.

إحدى النقاط التي قام عليها فكر دينيت هي نفي وجود الروح، اعتمادًا على عدم قدرة العلم المعاصر على إثباتها. إنّنا بحاجة هنا للتأكيد مرّة أخرى على أنّ عدم الإثبات لا يعني بالضرورة النفي، ماذا لو أثبتت البيولوجيا أو غيرها لاحقًا وجودها؟ سيصبح أنموذج دينيت عديمَ القيمة، جزءًا من التاريخ ليس إلّا. ما زال ديكارت - على قِدم عصره - يعجبني، فهو من القلائل الذين استطاعوا إدراك هذه اللعبة، والتعامل معها أكاديميًا في تأمّلاته! لم يتجاهل الروح، ولم يعتبر أنّها غير موجودة لمجرّد عدم القدرة على إثباتها ماديًا، بل مال إلى التصديق بوجودها بناءً على وجود مظاهرها. عاد دينيت بنا إلى وهم التفوّق الإنساني، وهذا كفيل بالتأثير على الاستنتاجات المتعلّقة بحدود قدرات الإنسان، وجعلها متحيّزة، ومنها الحريّة. متى حضرت الأنا - الفرديّة أو الجمعيّة- إلى أي معادلة، فسدت!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يقف دينيت عند ذلك الرأي التوافقي التقليدي، أضاف إليه بأن فصّل في الطريقة التي يتّخذ فيها الإنسان القرار. قدّم أنموذجًا من مرحلتين يشرح فيه تلك العمليّة: في المرحلة الأولى، ينشئ الإنسان «مولّد الاعتبارات». لتسهيل فهمه تخيّل آلة عرض تستعرض تلقائيًا أشياءً ينبغي على الإنسان أن يراعيها عند اتّخاذ القرار. في هذه المرحلة، يتم رفض بعض هذه الاعتبارات بشكل فوري -حدسي- شعوريًا أو لا شعوريًا. الاعتبارات المقبولة تبقى لتنتقل إلى المرحلة الثانية، حيث يأتي المنطق ليساعد الإنسان على الاختيار في إطارها.

رأى دينيت أنّ أنموذجه هذا متّفق مع الهندسة البيولوجيّة، كما أنّه مناسب لفكرة «مضخة الحدس». (64) وهو مصطلح صاغه دينيت نفسه ليشير إلى استخدام الحدس لحل قضايا فكريّة. تقوم فكرته على أنّ ما يظنّه الإنسان حدسًا يحتاج في الحقيقة إلى ذاكرة، وقدرة على الاسترجاع، ومعرفة بالعالم، وعاطفة، وعقلانيّة. وعلى هذا الأساس فالحدس علمي، متماشٍ مع البيولوجيا والعلوم الإدراكيّة، وليس شيئًا عارضًا أو وليد صدفة. مضخة الحدس تحيل تفكير الإنسان في لحظة معيّنة إلى استحضار الصورة الكاملة، دون الخوض في التفاصيل، وهو مهم في المرحلة الأولى لصنع القرار. يقر دينيت أنّ طريقته هذه ليست رسميّة، ولا علاقة لها بالرياضيّات، كطرق التفكير المنطقيّة الأخرى، هي أشبه بالشعر والنثر، عملية وجدانيّة أكثر من كونها منطقيّة، لا تضع الإنسان على نقطة ثابتة، لكنّها تُسهّل الوصول إلى تلك النقطة. (65)

(64) انظر كتاب العصف الذهني: مقالات فلسفيّة عن العقل وعلم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النفس، لدانيال دينيت، ص. 295.

(65) انظر كتاب المضخات الحسيّة وطرق أخرى للتفكير، لدانيال دينيت، ص. 1 - 16.

ككل النماذج، لاقى أنموذج دينيت لصنع القرار القبولَ والرفض في الأوساط الفلسفيّة. من بين رافضيه روبرت كين، الذي اعتبره عشوائيًا، وغير منطقي، كما أنّه لا يعطي الإنسان الوقت الكافي للتفكير في دوافعه وأسبابه. الإنسان لا يمتلك سيطرة كاملة على الصور والأفكار التي تدخل عقله وتؤثّر على رأيه، وهو ما يجعل المرحلة الأولى تخضع لقدر كبير من الصدفة. (66) قدّم كين أنموذجًا بديلًا تجاوز فيه السلبيّات السابقة، تكوّن من مرحلتين أيضًا: يمتلك الإنسان في المرحلة الأولى مجموعة من الأسباب يستخدمها ويفكّر فيها كما يشاء. لا مكان للحتميّة عند كين، ظروف تحيط بالقرار، يتحمّل الإنسان مسؤوليّة الاختيار من بينها. وفي المرحلة الثانية، يختار قراره النهائي بناءً على تعقيدات كثيرة مثل شخصيّته وقيمه وأسبابه ودوافعه ومشاعره ورغباته. (67)

(66) انظر كتاب مقدّمة معاصرة لحريّة الإرادة، لروبرت كين، ص. 64-65.

(67) انظر كتاب الإرادة الحرّة والقيم، لروبرت كين.

عند حديثه عن مشكلة حريّة الإرادة، بيّن كين أنّ علاقتها بالمجالات الفلسفيّة الأخرى معقّدة. في مجال الأخلاق، ترتبط بالوكالة الأخلاقيّة، والمسؤوليّة، والكرامة، والجدارة، والمسائلة، والاستقلاليّة. وفي مجال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العلوم الاجتماعيّة والسياسيّة، ترتبط بحدود قدرات الإنسان، والإكراه، والسيطرة. وفي مجال علم النفس، ترتبط بالسيطرة على النفس، وصورة الذات، والإدمان. وفي مجال العلوم القانونيّة، ترتبط بالاستعداد للجريمة، والمسؤوليّة والعقاب. وفي مجالات فلسفة العقل والعلوم العقليّة والعصبيّة، ترتبط بعلاقة العقل بالجسم، والشعور، وطبيعة الأفعال، والشخصيّة. وفي مجال النظريّة الاجتماعيّة، ترتبط بطبيعة المنطق، والخيار المنطقي أو العقلاني. وفي مجال الفلسفة الدينيّة، ترتبط بالمعرفة الإلهيّة المسبقة، والقدر. كما ترتبط بأمور ميتافيزيقيّة أخرى، مثل: الضرورة والإمكانيّة، والحتميّة، والوقت والفرصة، والواقع الكمي، وقوانين الطبيعة، والسببيّة. هذه العلاقات المتشعّبة بين حريّة الإرادة والمتغيّرات الأخرى الكثيرة السابقة هي سبب تباين آراء المفكّرين حولها. أمّا رأي كين نفسه في مسألة الحريّة فهو تحرّري ليبيريتاري. (68) الإنسان وفقًا له يتصرّف بحريّة مبنيّة على دوافعه وغاياته، التي تختلف بين الناس، هي غير متشابهة، ولا يمكن التنبؤ بها. لا يعني هذا إنكار العلاقة السببيّة بين الأسباب والأفعال، فالأسباب لا تكون دائمًا حتميّة، من الممكن أن تكون محتمَلة أو غير متوقّعة. بل إنّ كين لام على التحرريّين إنكارهم تلك العلاقة السببيّة. من وجهة نظره، هم يفعلون ذلك ليقدّموا أساسًا كافيًا للّا توافقيّة المتحرّرة، رغم عدم وجود حاجة لهذا الإنكار، فالأمران غير متعارضين. كين لا توافقي متحرّر، لكنّه يؤمن بالسببيّة. (69)

(68) مذهب فلسفي، لا توافقي، يرى أنّ الحتميّة غير موجودة، والفرد حر بشكل مطلق. عند الحديث عن تطبيقاته السياسيّة فإنّنا نرسم صورة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لمجتمع متحرّر رافض قيود السلطة، والعادات والتقاليد. الإنسان حر فيه حريّة مطلقة بشرط ألّا يمس حريّة الآخرين.

(69) انظر فصل مقدّمة: ملامح النقاشات المعاصرة حول حريّة الإرادة، في كتاب أكسفورد لحريّة الإرادة، لروبرت كين، ص. 26.

من المتوقّع ألّا يعجب أنموذج دينيت ليبيريتاريًا مثل كين، حتّى وإن كان مصدّقًا بالسببيّة، فإنسانُ دينيت نصفُ المتفوّق غيرُ كافٍ لإرضاء الليبيريتاريّين، إنسانهم أقوى من الطبيعة نفسها!

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

امشِ على قدميك الآن، فلَربّما ينبت الريش لاحقًا

الجسم مادّي، والعقل شيءٌ آخر، عالمٌ مختلف، هكذا حدّثنا ديكارت! ومعجبوه كثر، والمعجب إمّا أن يسير على الهدي مغمضًا عينيه، أو يزيد بعض الإضافات السخيفة حدّ الإضحاك أحيانًا، أو يأتي بجديد لافت للنظر، كما فعل كارل بوبر. بوبر كان موسيقيًا أيضًا، كديكارت، عرف أنّه لا يليق بالموسيقى أن تمر عليها مرور البخار على الماء في مركب، عليك أن تغوص في أعماقها، تبلّلك حتى تستشعرها بحواسك كلّها، إذا لم تؤثّر في روحك، فبئس الحياة الجامدة التي تعيشها! الموسيقى هي سبيل بوبر لاكتشاف العالم الثالث.

عرفنا أنّ العالم الأوّل - عالم الجسم - هو العالم المادّي الذي نقدر على تفسير سلوكه بقوانين الفيزياء. بنظرة أعم على العالم، نستخلص أنّ الأجسام كلّها مادية، ليس فقط جسم الإنسان، بل أي شيء آخر له كتله ويشغل فراغًا ما. بشكل غير صارم، قسّمه بوبر إلى الفيزيائي الحي، كالإنسان والحيوان؛ وغير الحي، كالصخور، والطائرات، وكل ما هو مادّي بلا روح. والعالم الثاني هو العالم العقلي أو النفسي، عالم الحالات الذهنيّة والأفكار والتصوّرات والمشاعر والقرارات والإدراك والملاحظات. قسّمه بوبر إلى الواعي، وغير الواعي. العالمان موجودان، ومتفاعلان فيما بينهما، يؤثّر أحدهما في الآخر -من وجهة نظر بوبر طبعًا وأنصار الثنائيّة- ولكن ما هو العالم الثالث؟ هو ما تجسّده المعرفة الإنسانيّة بمختلف أشكالها. فإذا كان التجسيد هو إنشاء مادّة من العالم الأوّل، والمعرفة ابنة العالم الثاني؛ فالعالم الثالث هو المنتجات المادّيّة للعالم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الثاني. هوّن عليك، فالمثال عليه أقرب مما تتخيّل، هذا الكتاب الذي بين يديك، ورق يشغل مكانه الفيزيائي بعد أن كان أفكارًا في عقل صاحبه. المقطوعات الموسيقيّة والمنحوتات والمعادلات الرياضيّة واللغات كلّها تنتمي إلى العالم الثالث. بوبر المولع بالتقسيم جعله عالمين: العلم، والأدب.

أهم ما في نظريّة بوبر هو ليس ابتداع العالم الثالث، بل تَصوُّر العلاقة المتداخلة بين العوالم الثلاثة، من حيث انفتاحها على التأثّر ببعضها، وتأثير هذا التصوّر على قضيّة الحريّة. لنستعرض بعض الأمثلة على هذا التداخل قبل التطرّق إلى الرؤية الجديدة للحريّة. أظن أنّنا جميعًا نعرف ما هي الصخرة، جسم من العالم الأوّل، مادّي بلا روح، خاضع لقوانين الفيزياء، نراه ملقًى في مكان ما، فنستخدم ما يعرفه عقلنا من معلومات -العالم الثاني- لنعرف منها حجمها ومساحتها وشكلها وصلابتها. وحين

Telegram:@mbooks90

يجيء رجل من القرنين الخامس عشر والسادس عشر اسمه تيتيان، ليرسمها بين يدي سيزيف، فتلك هي منتجات العالم الثالث. إعلان الاستقلال الأمريكي هو أحد الأمثلة على ابتكارات العالم الثالث. كتاب فيزيائي أنتجه فكر إنساني ما. ولكنّ العلاقة السببيّة من حيث التأثّر والتأثير متبادلة، بمعنى أنّ العقل الذي كان صاحب السبق بابتداع منتج من العالم الثالث -إعلان الاستقلال - تأثّر به لاحقًا. الشعب الأمريكي متأثّر، محكوم بهذه الوثيقة. العالم الثالث يغيّر الفكر الإنساني، يخلق مشاهد مختلفة، وأحداثًا جديدة، وخبرات مغايرة، وبالتالي أفكارًا مختلفة.

أمّا الصدمة الكبرى، التي تشبه سريان تيار كهربائي في أجساد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الماديّين، هي أنّ العالم الثالث يغيّر العالم الأوّل أيضًا. فكّر في النظريّات الملقاة بين دفتي كتاب، تأمّل الخرائط الجغرافيّة، والمخطّطات الهندسيّة، إنّها تغيّر عالمنا المادّي، قد تُوجِد مطارًا هنا، أو ميناءً هناك، بوسعها أن تصنع مدينة على رمال الصحراء. من الممكن أيضًا العمل على تطوير منتجات العالم المادّي الأوّل من خلال الكتب وآراء المختصّين، التي هي نتاج العالم الثالث. ماذا يعني هذا؟ ببساطة، العالم المادّي في تَغيُّر مستمر، والحتميّة الطبيعيّة إلى الجحيم!

لو نظرنا إلى الإنسان المعاصر لوجدناه أذكى من أسلافه، في حين أنّ تشريح الدماغ ووظائفه هو نفسه في المائة سنة الأخيرة. هذا التفوّق سببه تبدُّل حال العالم الفيزيائي، تغيّر فتغيّرت معه الخبرة الإنسانيّة، وتغيّرت بناءً عليها طريقة التفكير. حتى التفكير بالذات، يعتمد أساسًا على نظريّات وفنون العالم الثالث، خاصّة على نظريّة الزمن التي تكمن وراء هويّة الذات، ذات الأمس، واليوم، والغد. تعلُّم اللغة، التي هي كائن في العالم الثالث، هو في حد ذاته عمل إبداعي، يوسّع الإدراك، ويفتح الآفاق، ويزيد الوعي بالذات الفردية والجمعيّة. العالم المادّي لا يجعل تصرفاتنا حتميّة، بل نحن من نبدّل حاله. الإنسان حر، حتّى إنّه يستطيع تغييرَ العالم المادّي. (70)

(70) انظر محاضرة ثلاثة عوالم، لكارل بوبر، في جامعة ميتشغان الأمريكيّة، عام 1978، ضمن سلسلة محاضرات تانر عن القيم الإنسانيّة. وأيضًا كتاب الحياة كلّها حل مشكلات، لكارل بوبر، ص. 23 - 35.

لفت بوبر نظرَ الأكاديميا والفكر إلى عالم جديد، وهذا جديد يستحق

الثناء. وتحدث عن إمكانية تغيير فيزيائية العالم، يبدو هذا منطقيًا أيضًا، تجاربنا رأت أشياء مثله، ولكن هل يترتب على هذا التغيير قوانين طبيعية جديدة؟ إذا بنينا مطارًا غير شكل الخارطة، فهل ستختلف معادلات نزول الطائرة؟ هل نراها تهبط للأعلى مثلًا! أو تمضي متجاهلة سرعة الرياح، أو فرص الاصطدام بأجسام أخرى! في الحقيقة، لم أسمع بقانون فيزيائي تغير إلّا بعد أن ثبت خطأه، ربما تكونون قد سمعتم! ماذا لو قام شاعر مشهور بجعل الناس يتحرّكون طائرين في قصيدته، فهل سننتظر نمو الريش!

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذا لم تستطع حل المشكلة، زدها غموضًا

نرى الحماس من الشباب دون الخامسة والعشرين، فلا ننكره عليهم، نتركهم للدنيا لتعلّمهم. لكن مَن أجرت عليه الدنيا سبعًا من عقودها، وما زال فكره متطرّفًا، فلمَن نتركه! حدّثنا بيتر فان إنواجن -وليته لزم الصمت- بأنّ الإرادة الحرّة موجودة بما لا يقبل النقاش أو الإنكار! وإلّا فنحن نخلو من الرغبات، والمسؤوليّة عن أفعالنا. بداية غير موفّقة، بناء ينقص أساسه المنطق. أربعة آلاف عام من النقاشات حسمها الرجل بهذا الشكل! رأينا سابقًا مثل هذه البدايات، وكيف أودت بنا إلى طرق ملأى بالمحاولات البائسة لاسترداد المنطق والمنهج الأكاديمي. ورغم كل ما تركنه تلك المناهج السابقة في نفسي من سخط، إلّا أنها لم ترقَ لما فعله بي فان إنواجن، فقرّرت أن أكتب هذا الفصل، وأنسى اسم الرجل بعدها للأبد.

الماضي والحاضر أزمنة، وما الزمان إلّا فِعالُ أهله. لمّا تسعفنا الفيزياء بعد لنعرف عنه أكثر من ذلك. بهذه الطريقة نؤرّخ ما نفعله على هذه الدنيا دوَلًا وقبائلَ وأفرادًا. إذا كانت أفعالنا الحاضرة مشابهة للماضية فنحن مسيّرون على طريق ما، قوّة أكبر منّا تكرّر نَسخ الزمان، وإجراءه علينا. أمّا إذا كان اليوم لا يشبه الأمس، فهذا يعني أنّ الإنسان لديه خيارات كثيرة ينوّع فيما بينها، لدرجةٍ تخلق هذا الاختلاف. هذا الرأي ليس شاذًا، رأينا وليم جيمس يتحدّث عن شيء مشابه. بالنسبة إلى فان إنواجن، فالمستقبل شيء جديد مختلف، وغير متوقّع. وعليه، فالإنسان حر تمامًا بلا قيود حتميّة. توافقيّة الحتميّة مع الإرادة الحرّة غير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

موجودة. (71) اعتمد فان إنواجن على علاقة الماضي بالحاضر لنفي الحتميّة، العجيب أنّ جيمس اعتمد على الشيء نفسه لإثباتها! لكنّ حجّة فان إنواجن غير مقنعة، كيف تراءى له أنّ المستقبل شيء غير متوقّع. أيّ شخص منّا سيستيقظ غدًا ويجد نفسه يعيش في نفس الظروف التي عاش فيها اليوم والأمس: الجنس والأهل والبلد والعمل وجريان العمر؛ سيتّخذ القرارات التي يتّخذها في العادة: الذهاب إلى العمل، أكل الأصناف التي يشتهيها؛ إلّا لو حصل له شيء حتمي، خارج عن سيطرته، كموت أحد المحيطين به أو حادث سيّارة يؤخّره عن عمله...الخ. لا نتصوّر أن يقرّر أحدهم تغيير عمله وجنسه وسيّارته وأهله باستمرار، إلى درجة تصنع فارقًا مؤثّرًا بين أيّامه. نفي أو إثبات علاقة الأمس باليوم تحتاج إلى مزيد من الدراسات العلميّة.

(71) انظر فصل حريّة الإرادة تبقى معضلة، في كتاب أكسفورد لحريّة الإرادة، لبيتر فان إنواجن، ص. 158 - 177.

باعتبار ما سبق، هل فان إنواجن لا توافقي، يؤمن بالحريّة، وينفي وجود الحتميّة؟ في الحقيقة: كلّا. فقد نفى علاقة الحريّة باللّا حتميّة أيضًا! رأى أنّه إذا ارتبطت اللّا حتميّة بمسألة الحريّة فإنّ هذا لأنّ أفعال الإنسان لا يمكن أن تكون حرّة إلّا إذا كانت غير محدّدة مسبقًا. والثابت لديه أنّ الإنسان حر، وعليه فأفعاله غير محدّدة مسبقًا. لكن إذا وُجدت اللّا حتميّة، كيف نعرف أنّ أفعاله ليست صدفة، وأنّه اختارها بإرادته؟ أي كيف نعرف أنّها بفعل الحريّة، وليست بتأثير ما للّا حتميّة؟ ضرب مثالًا توضيحيًا، فقال: إذا ترتّب عليّ الاختيار فيما إذا كنت سأكذب أو سأقول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحقيقة، فكذبت، فإنّ الكذب ليس له علاقة بالإرادة الحرّة إذا كان كذبي أو قولي للحقيقة مسألة صدفة. اختيار الكذب بدلًا من قول الحقيقة يعتبر إرادة حرّة إذا كان الأمر متعلّقًا باختيار الإنسان مباشرة قبل الحدث. لتكون إجابة السؤال من وجهة نظره هو إنكار توافقيّة الحريّة مع اللّا حتميّة. الحريّة إذًا لا تتوافق مع الحتميّة، ولا مع نقيضتها. هذا الرجل ينفي ببساطة اختلاط أي شيء مع الحريّة يعكّر صفوها. إنّه عاشق، وليس فيلسوفًا، حريٌّ به أن ينتمي لجمعيّة تدافع عن حقوق الإنسان الحديثة بدل أن يشتغل بالفلسفة. ألم يخطر للرجل البحث عن إجابات لأسئلته، أو حتّى تركها مفتوحة، بدلًا من سهولة نفي ارتباط الحريّة بأيّ شيء يزعجها! هل جرّبتم القهوة بالشوكولاتة؟ رجل كفان إنواجن - إذا كان متحمّسًا للقهوة - سيقول: لا نستطيع تحديد أي منهما المتسبّب في لون كل قطرة من السائل الجديد. وعليه لا تختلط الشوكولاتة مع القهوة في مشروب واحد. ماذا لو كان متحمّسًا للشوكولاتة!

هذا الرأي اللّا توافقي -لا توافقيّة الحرية مع الحتميّة واللّا حتميّة- جديد على الأكاديميا. ما زلت بعد الاطلاع عليه بتمعّن لا أعلم ما هي مشكلة التوافقيّة من وجهة نظر فان إنواجن!

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على كرسي الاسترخاء ذي الظهر المائل

العلوم الطبيعيّة مناهجها عالية الثبات، لَبِناتها معادلات لا تسمح بأي تسريب للنسبيّة، «1+1=2»، نأخذها جاهزة كما هي؛ أمّا نتائجها فدقيقة وصارمة، واكتشافاتها تأخذ قوّا ختم القوانين. في أي مختبر كيميائي في العالم، على يد أي مختص، وعند توفُّر الأدوات المناسبة؛ إذا تم دمج ذرّتي هيدروجين مع ذرّة أكسجين، ينتج الماء. والأمثلة على النماذج الدقيقة كثيرة، نستطيع أن نعرف الوزن، والطول، والمساحة ... الخ باستخدام أدوات تعطي النتائج نفسها، في كل مرّة نقيسها بها، حتى إذا استخدمنا أدوات مختلفة للقياس. الفلسفة - والعلوم الإنسانيّة بشكل عام - لا تقدر على هذه الدقّة، هي عاجزة عن تقديم مثل تلك الأدوات التي تحسم قضاياها المُعلّقة، فتبقى حائرة بين فرضيّات، وتأويلات، ونماذج. هذا ليس عيبًا، بل خصوصيّة، ربّما يكمن جمال الفلسفة فيها! لكنّ الإنسان لا يبحث عن الجمال فقط، قد يستغني عنه مقابل الإجابات المحدَّدة، لذلك حاول الفلاسفة المعاصرون استخدام مناهج العلوم الطبيعيّة في الإجابة عن بعض القضايا الفلسفيّة، أو في توضيح الأمور الشائكة في الأقل. وهذا العصر عرف تراكمًا علميًا هائلًا، سعى إليه الفلاسفة طارقين أبوابه، باحثين عن استنتاج هنا، أو خلاصة هناك، فأين وصلوا فيما يتعلق بحريّة الإرادة؟

- هل أنتم جاهزون؟

- نعم، نعم، نعم، نعم، نعم، نعم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- استعد.

استلقى المشاركون الستة، ووُصلت فروات رؤوسهم بالأقراص المعدنيّة الخاصّة بقياس موجات النشاط الكهربائي للدماغ. خلال ثلاث ثوانٍ أرخوا جميع عضلاتهم، وخصوصًا عضلات الرأس والرقبة والساعد، وعيونهم متسمّرة على وسط شاشة دائريّة قطرها خمسة إنشات، موضوعة على بعد 1.95 متر أمامهم. أشغل بنيامين ليبيت الشاشة، فبدأت بقعة دائريّة بإكمال دورات كاملة باتّجاه عقارب الساعة، دورة كل 2.56 ثانية. التعليمات واضحة لكل مشارك منذ بداية التجربة، عليه أن ينتظر دورة واحدة للبقعة الدائريّة، وبعدها في أي وقت يشعر فيه أنّه يريد أن يثني أصابعه أو معصم يده اليمنى أو كليهما، يقوم بذلك فورًا. التخطيط المسبق لذلك مرفوض، المطلوب قرار تلقائي، فتنفيذ لحظي. لأجل تشتيت المشاركين عن أي خطّة مسبقة، أوصل ليبيت بهم جهازًا لا يعلمون عنه، وظيفته أن يُشعرهم بنخزات بسيطة على أيديهم اليمنى. أثناء تنفيذ المشارك للحركة المطلوبة، كان عليه ملاحظة موقع البقعة الدائريّة بالتحديد؛ لأنّه سيُسأل عنه بعد اكتمال التجربة بعدّة ثوان. انتهت التجربة، نزع المشاركون الأقطاب عن رؤوسهم، ومضى كلّ إلى سبيله، وحده ليبيت بقي في مختبره يحلّل نتائج فكرته المثيرة للاهتمام.

أظهرت النتائج أنشطة دماغيّة للمشاركين قبل مئاتٍ من الميللي ثانية (72) من إظهارهم أي تعبيرٍ عن إرادتهم الواعية بالحركة. هذه الأنشطة هي بدايات إشارة عصبيّة تدعى إمكانيّة الاستعداد، وهي مقياس لنشاط في قشرة الدماغ يتسبّب بحركة إراديّة ما، معروف عن هذه الإشارة أنّها تسبق الفعل. بكلمات أخرى، قرار الحركة بدأ عند المشاركين بشكل لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شعوري في الدماغ، قبل أن يتدخّل وعيهم، ويملي عليهم قرار الحركة! خلصت الدراسة إلى أنّ الحركات الإراديّة التلقائيّة مصدرها اللّا شعور. وعليه ظهرت تساؤلات خطيرة عن قدرة الفرد على الإنشاء والتحكّم الشعوري بحركاته الإراديّة. ليبيت، الباحث الكبير، علم أنّ نتائج دراسته ستثير الجدل، فتدارك الطريق على مستغلّيها من الحتميّين بأن رمى أمامهم حجرَيْ عثرة يكبحان جماح حماسهم. الأوّل حين تحدّث عن «الفيتو» (73) الشعوري، الذي من الممكن أن يمنع أداء الحركة التلقائيّة الصادرة من اللّا شعور. وجد ليبيت أنّ المدّة اللّا شعوريّة التي بدأت منها الحركة تبعتها أخرى شعوريّة، حوالي 150 - 200 ميللي ثانية. خلال هذه المدّة كان باستطاعة المشارك أن يقرّر عدم القيام بالحركة. الحركة مصدرها لا شعوري، لكن بوسع الشعور أن يمنعها. حجر العثرة الثاني كان أكاديميًا، تعلّق بعدم إمكانيّة تعميم نتائج الدراسة على الأفعال الأخرى التي يسبقها وقت كافٍ للمداولة والمفاضلة والاختيار. هذه الدراسة شملت الأفعال العفويّة فقط، التي يتم تنفيذها بسرعة، ولا يمكن اعتبار نتائجها ممثّلة للأنواع الأخرى من الأفعال. لا بد من دراسة كل نوع، من حيث بدءه -الوعي أم اللّا وعي- والسيطرة عليه، حتّى نؤكّد أو ننفي النتائج السابقة.(74)

(72) الثانية الواحدة تتكوّن من ألف ميللي ثانية.

(73) الفيتو، أو حق النقض، هو حق منع إجراء قرار رسمي، قد يكون محليًا، على مستوى الدولة؛ أو عالميًا، من خلال مجلس الأمن التابع للأمم المتّحدة. لكنّ الدول التي لها هذا الحق في المجلس خمسة فقط:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الولايات المتحدة، وروسيا، والمملكة المتحدة، وفرنسا، والصين.

- (74) انظر مقال توقيت النيّة الواعية للتصرّف وعلاقته ببدء النشاط الدماغي (إمكانيّة الاستعداد): البداية اللّا واعية للعمل الإراديّ الحر، في دوريّة الدماغ، لبنيامين ليبيت وآخرين.

هناك حجر عثرة ثالث لم يتحدّث عنه ليبيت، وهو أنّ الذي أوحى للشعور بتنفيذ حركة بعينها ليس اللّا شعور، بل عامل خارجي، وهو ليبيت نفسه، حين طلب من المشاركين أن يقوموا بحركة بعينها. اللّا شعور لم يجلب قرار الحركة من تلقاء نفسه، بل تأثّر بخيارات ليبيت. ولكن تبقى هذه التجربة مهمّة ومؤثّرة عند الحديث عن التاريخ العلمي للحريّة، خصوصًا عند معرفتنا أنّ كل التجارب العلميّة تنطوي على سلبيّات، وعناصر ناقصة.

بمنهج بنائي واعٍ لتجارب الباحثين الآخرين، وبلهجة أكثر حدّة من ليبيت - وإن ما زالت خاضعة لتواضع الباحث، بعيدة عن حسم المبتدئ، وعن تطويع المتحيّز- تحدّث دانيال ويغنر عن منشأ الأفعال، مبيّنًا فيما إذا كان شعوريًّا أم لا شعوريًّا. بدأ باستعراض بعض الدراسات المهمّة في هذا السياق، منها ما قام به ويلدر بنفيلد بتعريض مناطق معيّنة في الدماغ عند بعض المرضى للتحفيز الكهربائي، من أجل إنتاج الحركة. أسفرت النتائج عن قيامهم بحركات معقّدة، من عدّة خطوات. أثناء التجربة، وجدوا أنفسهم يقومون بها دون قرار مسبق منهم، وعندما تحدّثوا عنها، قالوا إنّهم لم يقوموا بها، بل شعروا أن بينفلد «سحبها» منهم. ما استنتجه ويغنر من تجربة بنفيلد أنّ الإرادة هي إضافة للفعل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاختياري، وليست سببًا له. وقف ويغنر على تجربة أخرى قام بها فريق بحثي قاده البروفيسور يواكيم برازيل-نيتو وآخرون. طلب الباحثون من المشاركين اختيار تحريك السبّابة اليمنى أو اليسرى كلّما سمعوا صوت نقرة. لكنّهم في الحقيقة وجّهوا خيارات المشاركين، باستخدام أجهزة معيّنة، تقوم بالتحفيز المغناطيسي للدماغ، وبالتناوب على القشرتين الحركيّتين اليسرى واليمنى، ممّا يؤثر على خيار الحركة. نجح التأثير، وكان إصبع المشارك الذي يتحرّك هو المتأثّر بالجهة المُحفَّزة. المثير للاهتمام هو إفادة المشاركين - بعد انتهاءالتجربة- بأنّ حركاتهم كانت واعية، وأنّهم اختاروها بكامل إرادتهم. استخدم ويغنر خلاصة هذه الدراسة للتأكيد على النتيجة السابقة نفسها لتجربة بنفيلد، الحركة لا تخضع للإرادة، ومن الممكن صنعها، وتضليل صاحبها بجعله يظن أنّه اختارها. استمر ويغنر بمحاولة التدليل على النتيجة نفسها من خلال

Telegram:@mbooks90

دراسات أخرى، استوقفه مثلًا كلام بعض المرضى المصابين بتلف في الدماغ، والمسبّب «لمتلازمة اليد الغريبة»، حين ذكروا أنّ يدهم الغريبة تلك تعمل بعقل خاص بها لوحدها، دون تحكّم واعٍ منهم. إحدى المريضات قالت إنّ «شخصًا مِن القمر» يتحكّم في يدها. وذكر ويغنر مرضى الفصام - الشيزوفرينيا - الذين يسمعون أصواتًا، هلوسات سمعيّة، هذه الهلوسات هي في الحقيقة أفكار داخليّة تأتي للدماغ مباشرة، دون توقّع مسبق، لذلك يُظن أنّها ليست اختياريّة، ومع تكرارها، تُسنَد إلى عوامل خارجية. أي أنّ المصابين بها يعزون أفكارهم وصوتهم الداخلي إلى الآخرين. وبالطبع لم ينسَ ويغنر المرور على تجربة ليبيت.

خلاصة نتائج الدراسات السابقة هي أنّ الفعل ليس ناتجًا عن إرادة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شعوريّة. فإذا كان كذلك فعلًا، فهو نتيجة ماذا إذًا؟ أجاب ويغنر عن هذا السؤال بتأكيده على وجود سوء تقدير للاستدلالات السببيّة بين الأفكار والأفعال. خبرات الإرادة الواعية منفصلة عن العمليّة السببيّة الفعليّة، وبالتالي لا تمثّل المعتقدات المباشرة التي تسبّب الأفعال. نحن حين نعتقد أنّ أفعالنا شعوريّة، فهذه خدعة، حين نحرّك يدنا مثلًا، نظن أنّنا قد قرّرنا شعوريًا أنّنا سنحرّكها، أو حين نقرّر أن نذهب إلى المتجر لشراء الحليب، ثم نقوم بذلك فعلًا، نظن أنّه قرار شعوري. نحن نفكّر أن نقوم بشيء ما، ثم نقوم به، هذا صحيح، حتى الآن، ولكن هذا ليس بسبب التفكير الواعي، بل هي عمليات عقليّة أخرى، ليست شعوريّة بطبيعة الحال، ولا تسبّب التفكير فقط، بل والتنفيذ أيضًا. نعي أفكارنا وأفعالنا، لكنّنا لا نعرف أنّها من مصدر لا شعوري سابق لذلك الوعي. هذا المصدر هو خبراتنا، وأفكارنا، المستترة في اللّا شعور.

ولكن من أقنع الشعور المسكين أنّه مسؤول عن الفعل؟ نظريّة السببية العقليّة الظاهريّة، القائمة على أساس أنّ أفعالنا تسبّب تصرّفاتنا. هذا الأساس خادع، وغير صحيح. بُني على مبادئ الأسبقيّة، والاتّساق، والحصريّة. بمعنى عندما تسبق فكرة شعوريّة ما الفعل، ثم تتّسق معه، دون أن يصاحبها أسباب بديلة ظاهرة؛ فإنّنا نظن أنّ فكرتنا الشعوريّة مسؤولة عن فعلنا، فنعزوه إلى شعورنا الواعي. إنّ الإرادة الواعية خدعة عقليّة، رائعة للأمانة، خدعة تخلص إلى مسؤوليّتنا الواعية عن أفعالنا، لكنّها لا تقدّم تفسيرات فعليّة للسببيّة الحتميّة الحقيقيّة. لم ينس ويغنر أن يبيّن أنّ الأمانة العلميّة تقتضي القول إنّ مسألة تَسَبُّب الفكر الواعي للفعل تحتاج المزيد من الدراسات العلميّة لحسمها، وأنّ الفكرة التي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قدّمها في دراسته هي توضيح أنّ نظام العقل في فهم العلاقات السببيّة بين الوعي والفعل ليس إلّا مرشدًا مضلّلًا لفهم تلك العلاقة، ومن الممكن أن يضلّل الشخص بالكثير من الظروف التي تعيق استنتاجاته. (75)

(75) انظر مقال الخدعة الأفضل للعقل، في دوريّة اتّجاهات في العلوم العقليّة، لدانيال ويغنر.

دراسة ويغنر علامة فارقة في التاريخ العلمي للحريّة، لا يمكن تجاهلها بأي حال من الأحوال. ذكر بنفسه سلبيّاتها، وليس لدينا ما نضيفه بهذا الصدد. ننتظر دراسات أخرى بهذا القدر من الصدق والثبات الذي يتعدّى فكر الفلاسفة المجرّد. بهذا تُحسم القضايا الشائكة المعلّقة!

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حدّثتنا الجينات، فقالت

في منتصف القرن العشرين كانت الحروب مشتعلة في ساحات الأكاديميا من أجل الوصول إلى إجابة مقنعة على السؤال الآتي: هل يولد الإنسان حاملًا صفاته السلوكيّة؟ أم يرثها من المجتمع؟ استلَّ الأكاديميّون أقلامهم، وسفِك الكثير من الحبر على صفحات الدوريّات العلميّة. تلاميذ مدرسة علم النفس التطوّري -المتأثّرون بجان جاك روسّو- نسبوا إلى البيئة الفضلَ الوحيد في تشكيل معتقدات الإنسان وسلوكه. ووقف على الجبهة الأخرى تلاميذُ علم الوراثة السلوكيّة -السائرون على أفكار فرانسيس غالتون- موقنين بأنّ الإنسان يولد بنمط سلوكي معيّن محمول على جيناته. الإجابة على هذا السؤال مهمّة في مسألة حريّة الإرادة، لها علاقة مباشرة وتأثير كبير على فهمنا للمدى الممكن للحريّة الإنسانيّة. إذا كنّا نولد بنمط سلوكي معين محمول على جيناتنا الوراثيّة، فنحن هنا أمام حتميّة بيولوجيّة. إذ كيف للإنسان أن يكون حر التصرّف في الوقت الذي تكون فيه جيناته «مُصمَّمة» بحيث تجعله يتصرّف بشكل معيّن! لا مجال هنا لحريّة الإرادة، أو في الأقل هناك مساحة صغيرة من القدرات التي يستخدمها الإنسان لصنع قراراته. أمّا إذا كانت الإجابة هي أنّنا نرث سلوكنا من المجتمع، فقد تصبح فكرة حريّة الإرادة أكثر قبولًا ضمن هذا التصوّر.

انضم إلى ركب المجيبين عن السؤال ستيفن بينكر، الأستاذ المعاصر لعلم النفس في جامعة هارفرد. تلخّصت إجابته بأنّ كلا الطرفين على حق، فبعض الصفات بيولوجيّة تأتي مع الإنسان إلى الدنيا، مثل طبيعة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشخصيّة، والقدرات اللغويّة، ومعدّل الذكاء. وبعض الصفات تُكتسَب من البيئة نتاج تفاعل الإنسان مع المحيط الذي يعيش فيه - كالبيت والمدرسة والشارع - هذه الصفات غير قابلة للتوريث الجيني (76)، يكتسبها البشر من عصارة ثقافتهم. من الأمثلة عليها: اللغة المحكيّة والدين المُتَّبع والانتماء السياسي.

(76) انظر كتاب الصفحة البيضاء: الإنكار الحديث للطبيعة البشريّة، لستيفن بينكر، ص. 375.

بينكر كان واعيًا لنقاشات حريّة الإرادة الدائرة حوله، فربط خلاصة نتائجه السابقة بالحريّة. رغم أنّ نتائج بينكر تقود إلى تأثير جيني -لا يمكن اعتباره ضئيلًا- على السلوك البشري، إلّا أنّه نوّه إلى أنّ الخوف من الحتميّة البيولوجية خاطئ، وفي غير محلّه؛ لأنّه خلْط بين التفسير البيولوجي والتبرير في نطاق المسؤوليّة عن الفعل، فالمسؤوليّة تتطلّب أن يكون السلوك غير مُسبَّب - بجينات أو غيرها - ما دام يُوجب المديح أو اللوم. (77) ونرى بينكر هنا يلمّح إلى التبعات الأخلاقيّة -وربّما القانونيّة- الناتجة عن وجود الحتميّة التي أقرّ وجودها بدرجة ما، كأنّه كان يسير في طريق علميّة لكنّها خطرة، وقرّر أن يستخدم المكابح ليغيّرها إلى طريق أكثر أمانًا، لكنّها ليست علميّة للأسف؛ لأنّ تبعات الحتميّة هي نتيجة على وجودها، وليست سببًا لها، بمعنى أنّ المنهج الصحيح هو أن نقرّر أولًا أنّ الحتميّة موجودة أو ليست موجودة، ثم نستنتج ما يترتّب على ذلك، من مسؤوليّة وغيرها. بينكر هنا ثبّت وجود المسؤوليّة -رغم أنها متغيّر تابع- ثم قرّر عدم وجود الحتميّة -وهي التي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يجب أن تكون متغيّرًا مستقلًا (78)- مع أنّ هذا مخالف لنتائجه الأوليّة. يبدو أنّه آثر أن يكون براغماتيًا على أن يكون أكاديميًا!

(77) انظر كتاب الصفحة البيضاء: الإنكار الحديث للطبيعة البشريّة، لستيفن بينكر، ص. 179.

(78) المتغيّر المستقل هو المسبّب الذي يعتمد عليه متغيّر تابع ما. مثلًا: حين نقول إنّ الزيادة السكانيّة تؤدّي إلى انخفاض دخل الفرد، تكون الزيادة السكانيّة هنا متغيّرًا مستقلًا، ودخل الفرد متغيّرًا تابعًا. إذا قمنا بقلب المتغيّرات، فقلنا إنّ انخفاض دخل الفرد يؤدّي إلى الزيادة السكانيّة، فهذا غير مقبول أكاديميًا إلّا باعتباره فرضيّة تستوجب الدراسة المستوفية لإثباتها.

وعلى أي حال، حتّى لو لم يكن هناك حتميّة جينيّة، فإنّ توجيه ثقافة المجتمع لسلوك أفراده هو ضرب من ضروب الحتميّة. لفهم هذا، علينا الإجابة عن الأسئلة الآتية: ما مدى قدرة الفرد على تغيير معتقداته الثقافيّة في وسط بيئته؟ هل يستطيع الإنسان انتهاج سلوك جديد مغاير للأفراد من حوله؟ من أجل الإجابة عن هذه الأسئلة، ينبغي أن نأخذ في اعتبارنا أبعاد ثقافة المجتمع، وهي: أوّلًا: مسافة السلطة، وما يترتّب عليها من نظرة الفرد لنفسه أمام مَن هو أعلى منه في الأدوار، كنظرة الطالب للمعلم، ونظرة الابن للأب، ونظرة المواطن للمسؤول السياسي. وثانيًا: تجنّب الغموض، وما يترتّب عليه من مقاومة أي تغيير، وعدم تقبّل الأشياء الجديدة والآراء غير التقليديّة. وثالثًا: الذكورة، وما يترتّب على ارتفاعها من ازدياد الفجوة بين الجنسين، وزيادة السلطة المفروضة على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإناث، ممّا يقيّد حريّتهن. ورابعًا؛ الفرديّة، وما يترتّب على انخافضها على حساب الجماعيّة من نظرة الفرد لنفسه على أنّه جزءٌ من المجموعة الأكبر، وليس كيانًا مستقلًا، صاحب أفكار متفرّدة، وبالتالي ارتفاع ولائه الفكري للقبيلة أو العائلة، وضغط المجموعة على أبنائها وتوجيه طريقة تفكيرهم. وخامسًا؛ التوجّه طويل المدى، وما يترتّب على انخفاضه من عيش الأفراد في الماضي، والحنين إلى تقاليده وبطولاته، بدلًا من الحاضر، الذي يكون غالبًا منفّرًا، وبالتالي رفض المواكبة، ومرونة التغيير. وسادسًا؛ الانغماس، وما يترتّب على انخفاضه من عدم إطلاق العنان للتمتّع بالرغبات الإنسانيّة الأساسيّة، والتعبير عنها. (79)

(79) انظر كتاب الثقافات والمؤسّسات: برمجيّات العقل، لغيرت هوفستيد.

تناول عدّة أكاديميّين العلاقة بين الثقافة والحريّة. تحدّث فيليب بيتيت عن علاقة قويّة بين أن يكون المرء حرًّا، وبين ألّا يكون خاضعًا لقوّة ما، كالقوّة التي يملكها أفراد أو جماعات أو حتّى دول (80)، ممّا يعني علاقة عكسيّة بين الحريّة وارتفاع درجتي مسافة السلطة والجماعيّة داخل المجتمع. مع اعتبار تأثيرات قوى دوليّة على دول أخرى. واعتبر فريدريك هايك أنّ ارتفاع درجة الجماعيّة مسؤول عن تكوين كيانات داخل الدولة، وهو ما يتعارض مع حصول الأفراد على حريّاتهم (81)، ممّا يعني علاقة عكسيّة بين الحريّة وارتفاع درجة الجماعيّة. الثقافة إذًا توجّه سلوك الأفراد، وتؤثّر على قراراتهم، حتّى لو لم يكن هذا التوجيه مطلقًا أو رسميًا، إلّا أنّه موجود ولا يمكن إنكاره،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي بعض الثقافات طاغٍ جدًا على سلوك الفرد. بالإضافة إلى الثقافة، فشخصيّة الفرد تلعب دورًا أيضًا في مدى استجابته لما يحدث حوله، مثلًا: في الثقافة نفسها نجد أفرادًا خاضعين تمامًا للسلوك الجمعي، من السهل التنبؤ بسلوكهم؛ في حين نجد أفرادًا أكثر تمردًا عليه.

(80) انظر مقال الحريّة كقوّة مضادّة، في دوريّة الأخلاق، لفيليب بيتيت.

(81) انظر كتاب الطريق إلى العبوديّة، لفريدريش هايك.

في مجتمعاتنا الشرقيّة مثلًا، هناك طريقة معروفة ومقبولة اجتماعيًا لإتمام مراسم الزواج. الحديث هنا عن المراسم الشكليّة، كتزيين السيّارات، ونقل الأثاث في مرأى من أهل المنطقة في بعض الثقافات الداخليّة -الأرياف خصوصًا- ولبس البدلة الرسميّة للعريس، والفستان الأبيض للعروس ...الخ. إذا شاء أحدهم الزواج بمراسم أخرى جديدة، من اختراعه هو، على اعتبار أنّه حر من قيود الثقافة المجتمعيّة، فما مدى قدرته على ذلك؟

الحريّة ابنة الثقافة، وعليها أن تكون بارّة بها، وأن ترث سماتها الشخصيّة منها، وهذا ليس عيبًا، بل تفردًا. توقُّع أن يكون للحريّة شكلٌ مثالي أو مفهومٌ عابر للمجتمعات هو إرهاقٌ لها، وهو كمَن يطالب ابنه المحبّ للفنون الالتحاقَ بكليّة الطب لإرضاء معايير معيّنة خارجة عن شخصيّته. نحن لا نغيّر الثقافة من أجل مفهوم «ما بعد استعماري» للحريّة، بل نوائم للحريّة مفهومًا موافقًا لتعقيدات الثقافة. افهم نفسك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومحيطك، واحترس أن تكون غايةُ مطالبتك بالحريّة حُبًا في التفرّد، تترجمُه شذوذًا عن مجتمعك!

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زمن الحتميّة

نزلت ضربات السوط على جسد العبد كالرعد، متقطّعة، وفي الغالب غير مؤذية، صوتها يسبب الألم أكثر من وقعها. السيّد كان عجوزًا في منتصف الستينيّات. صرخ العبد: « قُدِّرَ لي أن أسرق»، أجاب سيّده زينون: «وأن تُضرَبَ أيضًا». السيّد فيلسوف، والعبد فيلسوف، ولو مر بهما عابر لكان فيلسوفًا أيضًا، نحن إذًا في أثينا! أمّا إذا اختلف اثنان حول قضيّة وَسادَ الأقوى، فهذه شريعة المدن كلّها، ليس في 270 قبل الميلاد -زمن القصّة السابقة- بل حتّى الآن. الفرق أنّ زينون الرواقي -وهو فينيقي الأصل- استخدم السوط، وأقوياء الحاضر يستخدمون الدوريّات الأكاديميّة!

للأفكار سحر يعبر الزمن، مَن أطلقَ مصطلح «فكرة قديمة» محتال أو جاهل، لا توجد فكرة عفا عنها الزمن، بل هي فكرة نامت لوقت، وستسيقظ لاحقًا في وقتٍ آخر. تبنّى غالين ستراوسون الرؤية نفسها التي تبنّاها العبد الأثيني، وهو أستاذ الفلسفة المعاصر في جامعة تكساس، وكاتب مقالات في أشهر الصحف العالميّة، مثل: الإندبندنت، وصنداي تايمز. أنكر وجود حريّة الإرادة، ورفَض المسؤوليّة الأخلاقيّة التي تتبع الفعل. تعليله لذلك أنّ الإنسان يقوم بأفعاله بسبب ما هو عليه الآن، ظروفه العامّة، وهو ليس مسؤولًا عنها على الإطلاق، بل هي ناتج حالات عقليّة ما، لا يستطيع خلقها من العدم؛ وهي سلسلة من السببيّة والنتيجة، أغلب الأسباب فيها خارجة عن سيطرته. وبالتالي قراره ليس حرًا، وإيكال المسؤوليّة الأخلاقيّة إليه -بعد نزع الحريّة منه- عبث. رغم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذلك لم يؤكّد ستراوسون وجود الحتميّة ولم ينفها، ولكنّ وَقَفَ منها موقفًا متشككًا. لا عجب في ذلك، فالحريّة والحتميّة في فكر الفيلسوف ليسا كالليل والنهار، غياب أحدهما يعني وجود الآخر، وإنّما من الممكن أن يتواجدا معًا في ضرب من ضروب التوافقيّة، أو أن يغيبا معًا أيضًا. لتبسيط الأمر، قام ستراوسون نفسه بعمل جدول يشمل هذا التباين: (82)

(82) انظر كتاب الحريّة والإرادة، لغالين ستراوسون، ص. 6.

	1	2	3	4	5	6	7	8	9
حتميّة	√	×	√	×	√	×	؟	؟	؟
إرادة حرّة	×	√	√	×	؟	؟	×	√	؟

الإشارة «√» تعني موجودة، و«×» تعني غير موجودة، و«؟» تشير إلى موقف غير محدّد، امتناع عن القبول والرفض. ستراوسون يمثّل رقم 7 في هذا الجدول. رقم 1 يعني مؤيّد لوجود الحتميّة، رافض لوجود الحريّة. ومن الأمثلة عليه من الفلاسفة المعاصرين: تيد هوندريتش، وأليكساندر روزنبرغ، وسام هاريس، وديريك بيريبوم.

فلسفة هوندريتش ماديّة مستندة على علم فسيولوجيا الأعصاب، تتلخّص في أنّ كل الأفعال الإنسانيّة هي إمّا حركة أو سكون تسبّبها حالات الدماغ، وهي كلّها حالات ماديّة؛ لأنّها مرتبطة بالحالات الجسديّة: أغلبها تأثيرات لها، والكثير منها هي ارتباطات بها، وبعضها أسباب ناتجة عنها (83). الإرادة الحرّة تحتاج إلى قوّة مطلقة لنشأة الأفعال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أو الاختيار، وهي قوّة لا يمكن أن توجد في العالم الواقعي، ما يعني أنّ الحريّة غير موجودة. (84) الحتميّة هي الموجودة في الواقع، هي خاصّيّة من خصائص الوجود الإنساني، نحن غير مسؤولين عن أفعالنا، ولا نملك تقديم أنفسنا بطبيعة أو طريقة معيّنة. الجدير بالذكر أنّ هوندريتش لم يصنّف نفسه لا توافقيًا لرفضه الحريّة، بل رفض هذا التقسيم القديم من أساسه؛ لأنّه اعتبر اللّا توافقيّين فئة غير مستندة على أساس علمي مقنع حين لم يهتمّوا بشكل كافٍ بطريقة نشأة الأفعال. (85)

(83) انظر فصل حتميّة الفرد، في كتاب مقالات عن حريّة الفعل، لتيد هوندريتش، ص. 185.

(84) انظر فصل مقدّمة: ملامح النقاشات المعاصرة حول حريّة الإرادة، في كتاب أكسفورد لحريّة الإرادة، لروبرت كين، ص. 30.

(85) انظر فصل خطأ كلّ من التوافقيّة واللّا توافقيّة والمشكلة الحقيقيّة، في كتاب أكسفورد لحريّة الإرادة، لتيد هوندريتش، ص. 461.

ادّعى هوندريتش أنّ أغلب الحالات الماديّة هي تأثيرات للحالات الجسديّة، أي نتيجة لها. لن نقف عند كلمة «أغلب»، رغم ما يعتريها من غموض، وغياب لآليّة القياس التي أوصلته إليها، بل سنسأل عن النوعين الآخرين، وهما أسباب وارتباطات. الأسباب تعني أنّ الحالات العقليّة هي المسبّبة للحالات الجسديّة، فكيف جزم هوندريتش بماديّة هذا الجزء من الحالات العقليّة! ألا ينبغي أن نصل إلى نتيجة معاكسة، وهي أن «بعض»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحالات الجسدية سببها عقلي! أمّا ارتباطات فمعناها أنّ الحالتين تُنتجان بعضهما بشكل غير مسبّب أو غامض مثلًا، كالبرق والرعد، يأتيان تباعًا دون أن يسبّب أحدهما الآخر. دون دليل علمي، أليس من التحيّز أن نعتبر هذا الجزء ماديًا أيضًا!

ألكسندر روزنبرغ، روائي معاصر، وأستاذ للفلسفة في جامعة ديوك. استند بشكل تقليدي على الفيزياء، التي طالما استهوت الماديّين عند الحديث عن ماهيّة الإنسان، باعتباره مجرّد كتلة تتحرّك! أشار إلى جهود نيوتن في بيان مفهوم الحركة، تفسيراته الرياضيّة البسيطة، وقوانينه المثاليّة التي لا استثناء فيها وضّحت لنا كيف تتحرّك الأجسام، فأسهمت في فهم الكواكب والمذنّبات وكرات المدفع والمد والجزر. هذه القوانين حتميّة وسببيّة، يترتّب عليها أنّ وضع الجسم وقدرته على الحركة في وقت ما يحددان وضعه وقدرته على الحركة في أي وقت في المستقبل. باستطاعتها تحديد مواقع الكواكب في أي وقت على الإطلاق، في الماضي والحاضر والمستقبل. الإنسان أيضًا كتلة، هو مجموعة معقّدة من الجزيئات التي تتصرّف بما يتماشى مع تلك القوانين، حتّى عقله مكمن رغباته مادّي، لا يخرج عنها أيضًا. ادّعى البعض أنّ قوانين البيولوجيا لا تغطّيها الفيزياء، كان ذلك حقيقيًا قبل داروين، الذي فنّد تلك الادّعاءات، ودمّر ما كان يعزوه هؤلاء «لخطة الإله» في جسم الكون، وفي جسم الإنسان. وعليه لا يملك الإنسان حريّة اختيار حقيقيّة، بل يتوهّمها. أفعاله التي تبدو حرّة، ويبدو متحمّلًا لمسؤوليتّها، إذا تتبّعناها ودرسنا أسباب اختياراته ورغباته والحالات الفيزيائيّة لعقله، نصل إلى قوانين فيزيائيّة حتميّة. ما يدور في دماغنا المادّي المعقّد ثابت ومحدّد بأحداث

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سابقة. إذا أردت فهم هذا، تخيّل صفًا من الدومينو، تسقط منه قطعة، ستسقط القطع الأخرى تباعًا وراءها، هذه هي السببيّة المادّيّة في الدماغ. الأسباب التي تجعل الأحداث ثابتة في أذهاننا تخرجَ عن سيطرتنا، كنشأتنا ومحفّزاتنا الحسّيّة وحالاتنا الفيسيولوجيّة والبيئة حولنا وصفاتنا الموروثة، وبالتالي من الممكن الزعم بأنّه لا يوجد أي مدى في تلك الشبكة السببيّة الضخمة للاختيار الحر الحقيقي، وللأفعال، وحتّى للمسؤوليّة الأخلاقيّة عنها، فما هو محدّد بالحالات السابقة للأشياء -وبالتالي خارج عن سيطرتنا- هو ليس شيئًا نُلام عليه أو نتلقّى عليه المديح. (86)

(86) انظر كتاب فلسفة العلم: مقدّمة معاصرة، لأليكساندر روزنبرغ، ص. 8 - 9.

مثل روزنبرغ، أيّد سام هاريس وجود الحتميّة وغياب الحريّة، ولكن اختلف معه في قضيّة المسؤوليّة الأخلاقيّة. رأى أنّ الإرادة إمّا أن تكون محدّدة بأسباب سابقة، فبالتالي لسنا مسؤولين عنها؛ أو أن تكون نتاج الصدفة، وبالتالي لسنا مسؤولين عنها أيضًا. الحريّة ليست إلّا وهمًا، فما نظن أنّنا نقرّره ليس من صنعنا؛ لأنّ أفكارنا ونوايانا تنتج من أسباب غير واعية. وقد ضرب مثالًا، فقال: إذا قرّر رجل إطلاق النار على الرئيس، فإنّ قراره محدّد بنمط معيّن من النشاط العصبي، والذي هو بالتالي ناتج عن أسباب سابقة، مثل: صدفة مؤسفة لجينات سيّئة، أو طفولة غير سعيدة، أو نقص في النوم، أو تعرّض لإشعاع ما. هل نقول إنّ إرادته حرّة؟ كلّا. لم يسبق لأحد أن وصف طريقة يمكن من خلالها أن تنشأ العمليات العقليّة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والجسديّة التي من شأنها أن تشهد على وجود مثل هذه الحريّة، وأغلب الأوهام تنشأ من أشياء كهذه.

اعتبر هاريس أنّ الإرادة الحرّة تستند على فرضيّتين؛ الأولى: يستطيع كل منّا أن يتصرّف بشكل مختلف عمّا تصرّف في الماضي. تذكّروا فرضيّة فان إنواجن في فصل سابق. والثانية: أنّنا واعون لأغلب أفكارنا وأفعالنا في الحاضر. من وجهة نظره، كلا الافتراضين خاطئ. نحن واعون لجزء بسيط من المعلومات التي يعالجها الدماغ في كل لحظة، نلاحظ تغيّرات مستمرّة في الأفكار والمزاج والإدراك والسلوك ...الخ، إلّا أنّنا غير واعين للأسباب العصبيّة الفسيولوجيّة التي تُسبّب هذه التغيّرات. أنا مثلًا -والحديث لهاريس- أبدأ يومي في العادة بفنجان أو اثنين من الشاي أو القهوة، هذا اليوم قرّرت أن أشرب قهوة، لماذا لم أقرّر شرب الشاي؟ لا أعلم، أردت القهوة اليوم أكثر من الشاي، وكنت حرًا في امتلاك ما أردته، ولكنّني لم أختر القهوة عن الشاي بشكل واعٍ؛ لأنّي لا أستطيع التغيير من حالتي المزاجيّة وأن أختار الشاي. قال هاريس: «فكّر في الإطار الذي ستصنع فيه قرارك التالي، أنت لم تختر والديك ولا مكان أو زمان ولادتك. لم تختر جنسك ولا معظم خبرات حياتك. أنت لا تملك سيطرة على جيناتك أو على تطوّر دماغك. والآن دماغك يصنع الخيارات بناءً على التفضيلات والمعتقدات التي التصقت به خلال الحياة -عن طريق جيناتك وتطوّرك الجسدي منذ لحظة وجودك والتفاعلات التي صنعتها مع الآخرين والأحداث والأفكار- أين الحريّة في ذلك؟ نعم أنت حر في فعل ما تريد، ولكن من أين تأتي رغباتك؟»

أشار هاريس إلى نتائج دراسات حديثة قامت بمتابعة نشاط قشرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدماغ، أظهرت أنّ 256 عصبًا فقط مسؤولون عن التنبؤ ب 80% من قرارات الشخص بالحركة قبل 700 ميللي ثانية من وعيه بها. والحقيقة الصادمة التي نستخلصها اعتمادًا على نتائج هذه الدراسات هي أنّ دماغك حدّد بشكل مسبق ماذا ستفعل لاحقًا قبل أن تكون واعيًا به بلحظات. أنت بعدها تصبح واعيًا بهذا القرار، وتظن أنّك صنعته بشكل واعٍ حرا

لم يبنِ هاريس فلسفته العصبيّة على الماديّة، بل بيّن أنّ ماديّة الروح من عدمها ليست عاملًا مهمًا في صنع تصوّره عن الحريّة؛ لأنّه حتى لو لم تكن الروح ماديّة، فإنّ عمليّاتها اللّا واعية لن تعطي الإنسان حريّة أكثر ممّا تمنحه إيّاه العمليّات الفسيولوجيّة اللّا واعية للدماغ. إذا لم تستطع أن تعلم ماذا ستفعل روحك لاحقًا، فأنت لست في وضع المسيطر، ولا تملك حريّة. وقد خالف هاريس التوافقيّين في ادّعاءاتهم، قال إنّهم كمن يقول: «الدمية حرّة ما دامت تحب خيوطها.»

بعكس روزنبرغ، لم ينفِ هاريس المسائلة الأخلاقيّة. برّر ذلك بأنّ الحكم والمسؤوليّة تعتمد على الحالة العامّة المعقّدة لدماغ الإنسان، وليس على ميتافيزيقا السبب والتأثير في الدماغ. وضرب مثلًا توضيحيًا، فقال: إذا وقفتُ في السوبر ماركت عاريًا، وبدأت بالسرقة، سيكون سلوكي منافيًا تمامًا لشخصيّتي، وسأشعر أنّني لست في الحالة الذهنيّة الصحيحة. لكنّه لم يدعُ لعقاب المجرمين، ورأى أنّ الأفضل هو احتواؤهم وإعادة تأهيلهم. (87) يستدعي هذا سؤالًا إلى ذهني، وهو: كيف نعرف أنّ الشخص حين يرتكب جريمة يكون في حالته الذهنيّة الصحيحة أم لا؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(87) انظر كتاب حريّة الإرادة، لسام هاريس.

من وجهة نظر تبدو براغماتيّة، قدّم ديرك بيريبوم نموذجًا لا توافقيًا حتميًا. رأى في النموذج الليبيريتاري شيطانًا يطلب منّا التخلّي عن النموذج الأخلاقي، وما يتبعه من تأثير على رؤيتنا لأنفسنا كمستحقّين للّوم على الأفعال غير الأخلاقيّة، أو جديرين بالثناء على الأفعال الأخلاقيّة. النموذج الليبيريتاري هو انهيار المنظومة الأخلاقيّة في المجتمع، ما يؤثّر سلبًا على التعليم والإصلاح الأخلاقي ومنع الجريمة والعلاقات الشخصيّة والتفاعل مع الغضب والإحساس بالذنب أو العرفان والحب والحسرة وطريقة التعامل مع الآخرين، وخصوصًا الأطفال. أمّا الأنموذج الحتمي فمنافعه تطغى على سلبيّاته، والتي هي ليست كثيرة كما يظن الناس. (88)

(88) انظر فصل مقدّمة: ملامح النقاشات المعاصرة حول حريّة الإرادة، في كتاب أكسفورد لحريّة الإرادة، لروبرت كين، ص. 30.

ذكّرني بيريبوم بملحدٍ جالسته ذات مساء، ووصلنا بحديثنا إلى القناعات الدينيّة. سألته عن أسباب إلحاده، فعزاها إلى التربية الدينيّة المتزمّتة التي واجهها، وإلى حرمانه منذ الطفولة ممّا تيسّر لأقرانه من عمره من تجارب، كمشاهدة التلفاز واللهو في الحارات والاختلاط بالجنس الآخر. هذا الرجل لم يقدّم دليلًا واحدًا -يجدر بنا أن نسمّيه علميًا- عن الإلحاد. الإلحاد بالنسبة إليه هو رفض مبالغ فيه لواقع متزمّت عاشه في حياته. بعض الرفض يؤدي إلى رد فعل عنيف، وهو قبول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النموذج المعاكس، دون التفكير الجدّي فيه. رفض الأسود هو الأبيض، بلا نظر إلى التنوّع الكبير من الألوان بينهما. هكذا فعل بيريبوم حين تحدّث عن الحريّة، قناعته هي ليست إلّا رفض متطرّف لنتائج الأنموذج الليبيريتاري المتحرّر، دون وعي ممنهج! رفض الليبيريتاريّة لا يعني بالضرورة قبول الحتميّة، فبينهما نماذج توافقيّة كثيرة، من المفترض برجل بمكانة بيريبوم الأكاديميّة -وهو أستاذ الفلسفة والأخلاق في جامعة كورنيل- أن يكون مطّلعًا عليها. المعادلة ليست بسيطة، إمّا حريّة أو حتميّة، هي أعقد من ذلك بكثير!

بالطبع ليس كلّ فلاسفة ومفكّري العالم المعاصر حتميّين، يوجد بينهم لا توافقيّين، وغيرهم رافضين للحتميّة. للأمانة لا أملك إحصائيّات دقيقة لهم على جدول ستراوسون. لكنّ اختيار الحتميّين في هذا الفصل لم يكن متحيّزًا ولا عشوائيًا، بل هدف إلى إظهار أنّ هذا الفكر ما زال حاضرًا إلى اليوم، وأنّه لم «يُقتَل بحثًا» كما يزعم مَن قد لا يكون في حياته قد مرّ على بحث واحد يتحدّث عن قضيّة الحريّة.

***

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المراجع

أفلاطون. 2017. جمهورية أفلاطون. الطبعة الأولى. ترجمة حنا خباز. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

بدوي، عبد الرحمن. 1975. نيتشة. الطبعة الخامسة. الكويت: وكالة المطبوعات.

بدوي، عبد الرحمن. 1984. موسوعة الفلسفة. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ديكارت، رينيه. 1985. مقال عن المنهج. ترجمة محمود محمد الخضيري. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ديكارت، رينيه. 2009. التأملات في الفلسفة الأولى. ترجمة وتقديم وتعليق عثمان أمين. القاهرة: المركز القومي للترجمة.

ديورانت، ويل. 2018. قصة الفلسفة. القاهرة: فاروس للنشر والتوزيع.

روسو، جان جاك. 1958. إميل: تربية الطفل من المهد إلى الرشد. ترجمة نظمي لوقا. القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر.

روسو، جان جاك. 2013. العقد الاجتماعي. ترجمة عادل زعيتر. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

سارتر، جان بول. 1966. الوجود والعدم: بحث في الأنطولوجيا الظاهراتية. الطبعة الأولى. ترجمة عبد الرحمن بدوي. بيروت: دار الآداب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سارتر، جان بول. 2012. الوجوديّة منزع إنساني. الطبعة الأولى. تعريب محمّد نجيب عبد المولى؛ وزهير المدنيني، بيروت: دار التنوير؛ وتونس: دار محمد علي.

سبينوزا، باروخ. 2009. علم الأخلاق. الطبعة الأولى. ترجمة جلال الدين سعيد. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة.

صبري، مصطفى. 1933. موقف البشر تحت سلطان القدر. الطبعة الأولى. القاهرة: المطبعة السلفيّة ومكتبتها.

صليبا، جميل. 1982. المعجم الفلسفي: بالألفاظ العربيّة والفرنسيّة والإنجليزيّة واللاتينيّة. بيروت: دار الكتاب اللبناني.

العبسي، عروة بن الورد. 1998. ديوان عروة بن الورد: أمير الصعاليك. دراسة وشرح وتحقيق أسماء أبو بكر محمّد، بيروت: دار الكتب العلمية.

العراقي، عاطف. 1999. مذاهب فلاسفة الشرق. الطبعة الحادية عشرة. القاهرة: دار المعارف.

عمارة، محمّد. 1988. المعتزلة ومشكلة الحريّة الإنسانيّة. الطبعة الثانية. القاهرة: دار الشروق.

فاخوري، حنّا؛ والجر، خليل. 1993. تاريخ الفلسفة العربيّة. الطبعة الثالثة. بيروت: دار الجيل.

القاسمي، جمال الدين. 1979. تاريخ الجهميّة والمعتزلة. الطبعة الأولى. بيروت: مؤسّسة الرسالة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانط، عمّانوئيل. 1988. نقد العقل المحض. ترجمة موسى وهبة. بيروت: مركز الإنماء القومي.

كانط، عمّانوئيل. 2002. تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق. الطبعة الأولى. ترجمة وتقديم عبد الغفّار مكّاوي. كولونيا: منشورات الجمل.

الكتاب المقدّس. 1994. القاهرة: دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

نيتشة، فريدريش. 2011. نقيض المسيح: مقال اللعنة على المسيحيّة. ترجمة علي مصباح. بيروت: منشورات الجمل.

هوبز، توماس. 2011. الليفياثان: الأصول الطبيعيّة والسياسيّة لسلطة الدولة. الطبعة الأولى. ترجمة ديانا حبيب حرب؛ وبشري صعب. أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)؛ وبيروت: دار الفارابي.

Basham, A., 1951. History and doctrines of the Ajivikas: a vanished Indian religion. London: Luzac.

Berkeley, G., 1928. The principles of human knowledge. Chicago: The open court publishing company.

Bock, E., 1961. The search for Felix. The golden blade, pp.73 - 92.

Cambridge Dictionary of American English. 2000.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Cambridge: Cambridge University press.

Corbin, H., 1993. History of Islamic Philosophy. London: Keagan Paul international.

Dennett, D., 1981. Brainstorms: philosophical essays on mind and psychology. Sussex: Harvester press.

Dennett, D., 2003. Freedom evolves. New York: Viking.

Dennett, D., 2013. Intuition pumps and other tools for thinking. New York and London: W.W Norton & Company.

d'Holbach, B., 1889. The system of nature/ Laws of the moral and physical world. A new and improved edition, with notes by Diderot. Boston: J. P. Mendum.

Eugène, P., 1907. Life of St. Augustine of Hippo. In: C. Herbermann, ed., Catholic Encyclopedia, 2. New York: Robert Appleton company.

Finocchiaro, M.A., 1989. Galileo affair: a documentary history. California: University of California press.

Hansen, M.H., 2010. Democratic freedom and the concept of freedom in Plato and Aristotle. Greek,

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner